٢٤٨

HARLEQUIN

روايات احلام

ليل القرصان

لي ولكنسون

www.elromancia.com
مـرمـوريـة

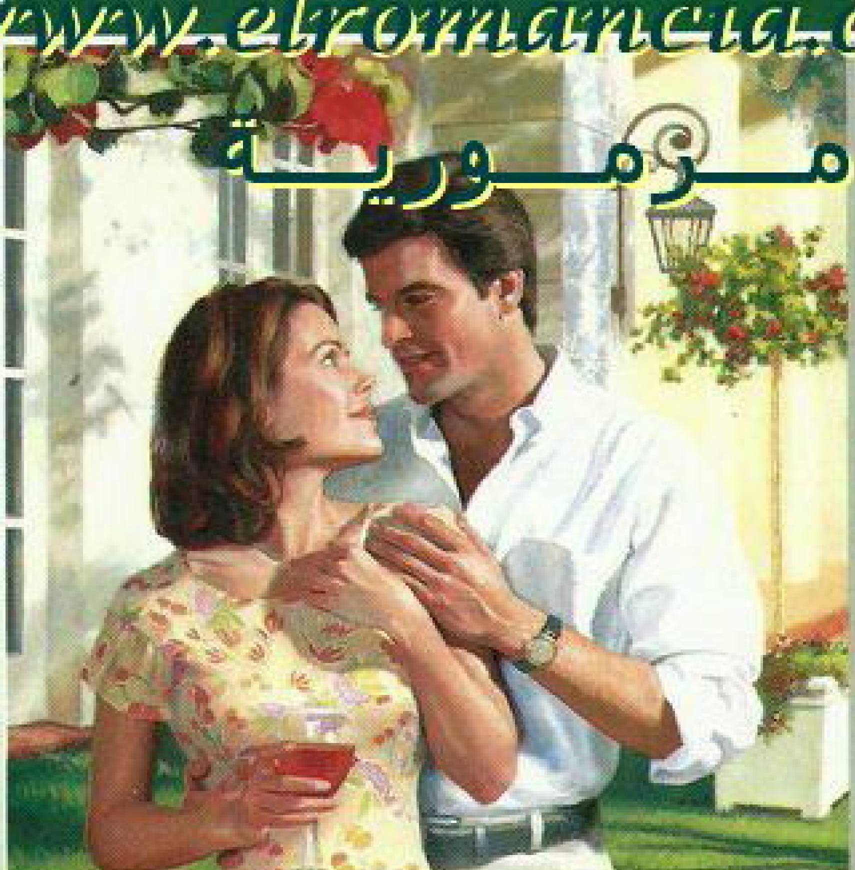

ليل القرصان

ها أنت تقفين وحيدة في الظلام، مع رجل لا تعرفين عنه شيئاً! رجل قد يكون أياً كان أو يخفي أي سر!...

مع هذا، لم يداخل آنا ساندز الشك عندما عزلتها الثلوج في قصر جيدون سترانج. لكنها أحسّت بالقسوة المخفية خلف وجهه الساحر، وأخذت تتساءل...

... لم يصدق جيدون البراءة التي تبدو عليها آنا، فقد كان واثقاً أنه يعرف حقيقة هذه المرأة الكاذبة، اللصة... لذا، وبما أنها أصبحت حيث أرادها، فسيجعلها تدفع ثمن جرائمها...

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.	البحرين: ١ دينار
سوريا: ٧٥ ل.س.	السعودية: ١٠ ريال
الأردن: ١,٥ دينار	مصر: ٦ جنيه
الكويت: ٧٥٠ فلس	المغرب: ١٥ درهم
الإمارات: ١٠ دراهم	تونس: ٢ دينار
قطر: ١٠ ريال	عمان: ١ ريال

ISBN 9953-15-081-8

لي ويلكنسون

تعيش لي ويلكنسون مع زوجها في منزل ريفي مشيد من الحجر، يعود تاريخ بنائه إلى ثلاثماية سنة خلت، في قرية (ديربيشير)، التي غالباً ما تعزلها الثلوج شتاء. يتمتعان معاً بالسفر ومؤخراً قاما بالتعاون مع ابنتهما وصهرهما برحلة حول العالم دامت سنة كاملة دون انقطاع. من هواياتها القراءة والاهتمام بالحديقة وإقامة حفلات الشواء المفاجئة لعائلتها وأصدقائها.

١ ـ ثلوج العيد

كانت الليلة ليلة الميلاد، والساعة تشير إلى الخامسة بعد الظهر، ومع ذلك فقد بدأ الظلام يخيم على الخارج. وعلى طول الساحة القديمة، انتشرت مصابيح عديدة فيكتورية الطابع ومحمية بعناية.

تقدمت «آنا» من النافذة وانحنت لتسمّر غطاء العلبة الخشبية، لقد بات متجرها فارغاً الآن!

وحانت منها التفاتةٌ عرضية من خلال النافذة، فعرفت أن الناس في الساحة أصبحوا قلةً. أما معظم المتاجر الخلفية الأخرى، فإما أغلقت أبوابها وإما تقوم باغلاقها. وحدهم الصاغة وبائعو الحلوى استمروا في البيع، فيما نوافذهم تتألق بالأشرطة اللماعة.

وبينما هي غارقةٌ في أفكارها، أحست بنظراتٍ تخترقها من الخارج. من غير أن تقصد، انغرز مسمار في إبهامها. فما كان منها إلا أن أعادت النظر مجدداً، وإذا بها تلمح طيفاً مظلماً يتحرك بعيداً. هنا، غمرها شعورٌ بالارتباك، إلا أنها سرعان ما هزت كتفيها بلا مبالاة وهي تقنع نفسها أن الطيف بلا ريب لأحد العابرين الذين صادف مرورهم في هذا الشارع.

كان الثلج يتساقط متهادياً، والندف أشبه بريشات كبيرة. لطالما أحبت الثلج، فهو يضفي دائماً لمسةً سحريةً على أي يوم كئيب يصادفها. بعد ذلك، أكبت على عملها مجدداً، حتى انتهت منْ تثبيت المسمار الأخير في غطاء العلبة النهائية. فوضعت المطرقة جانباً ونظرت من

www.rromancia.com

حولها، وهي تطلق تنهيدةً ضعيفة. فلم يتبقَ في المتجر شيء يذكر. فالرفوف أمست فارغةً، والنوافذ عارية من أي زينةٍ، تماماً كحال مخزن الكتب الضيق والمظلم.

وحدها رائحة عفنٍ خفيفة بقيت في الغرفة، كانت تنبعث من الأوراق القديمة وحواشي الكتبِ وحبر المطبعة. وحدها تلك الرائحة علقت في الهواء، لتشهد على كتبٍ كانت وعلى حلمٍ انقضى. أما أثمن الطبعات الأولى والمخطوطات القديمة، فاختفت جميعها منذ الأمس حين أمست فريسةً لوكيل أحد المشترين.

وأقبلت على بقية البضائع، فراحت تجمعها بعناية في صناديق استعداداً لتسليمها في الأيام القليلة بين عيد الميلاد ورأس السنة.

لطالما كانت «آنا» تداعب طموحاً غالياً على قلبها. فمنذ زمنٍ بعيد وهي تحلم بإنشاء مكتبتها الخاصة، حلمٌ لقي كل التشجيع من صديقتها العزيزة «كليو»... مع أن الفتاتين صديقتان منذ نعومة أظافرهما، إلا أنهما تختلفان طبعاً وشكلاً. فآنا فتاةٌ فارعة الطول، رشيقةٌ وسمراء، تعرف تماماً كيف تسيطر على مشاعرها، أما كليو فقصيرةٌ وممتلئة الجسم، وعلى قدرٍ من الجمال، وهي تتقد بحبٍ للحياة ونشاط دائم. وعلى مدى الأيام التي جمعتهما في المدرسة كما في الجامعة، كانت كل واحدة منهما تبوح للأخرى بآمالها وبمخاوفها، وبالنجاح الذي تلاقيه والخيبات التي تمنى بها.

وحين تمكنت «آنا» أخيراً من جمع المال الكافي لاستئجار متجرٍ، انشرح صدر «كليو» وخفق قلبها فرحاً لا سيما حين أضافت «آنا» بعض الخرائط الأثرية إلى مجموعتها الخاصة. ومع أنها أصبحت والدةً تنفق معظم وقتها في الاهتمام بولديها التوأمين، إلا أن كليو قدمت لصديقتها كل ما في وسعها من المساعدة العملية والدعم المعنوي.

أما اليوم، فقد مني مشروع «آنا» للأسف، بفشل ذريع. وذلك بعد أشهر طويلة من العمل والجهود الشاقة، ولعل السبب الرئيسي في ذلك

يعود إلى افتقارها للمال. وقد اظهرت كليو من التعاطف ما استطاعت إلا أنها ظلت عاجزةً عن المساعدة. وفي الأمس، اقتحمت المتجر وهي تتأسف لإغلاقه قائلة: «يا لها من خسارة كبيرة... حبذا لو أستطيع مساعدتك بأي طريقة. أخبريني ماذا ستفعلين؟».

هزت آنا كتفيها بلا مبالاةٍ: «ما إن ينتهي عيد الميلاد، حتى أبدأ بالبحث عن عمل».

- لن يكون الأمر عسيراً بالنسبة لفتاةٍ بخبرتك ومؤهلاتك.

ومع ذلك، كانت كلتاها تدرك أن التفاؤل أمرٌ تافه وغير مجدٍ في هذه الظروف. كانت «رمينغتون» بلدةً صغيرةً، هادئة، فيها سوق رائعة، وتحيط بها التلال والسهول الخصبة. غير أن فرص العمل فيها قليلة وبعيدة المنال، إذا ما استثنينا قطاع السياحة طبعاً.

بدا هذا أحد الأسباب الذي دفع بآنا لاستغلال الفرصة واستئجار المتجر لفترةٍ قصيرة، مستعينة برأس مالٍ لا يكاد يكفيها. لكن لم يكن أمامها خيارٌ آخر. رغم كل ذلك، أرادت أن تستقر في رمينغتون حيث ولدت وترعرت، فرحيلها عن الجامعة، والسنتان اللتان قضتهما في لندن، لم يسهما إلا في زيادة كرهها للمدن الكبيرة، فعادت إلى بيتها وقد هدّها الإرهاق وأنهكتها خيبات الأمل.

تمتمت «كليو» بتفجع: «لقد كدتِ تنجزين صفقة رابحة! لو أنهم لم يجددوا عقد الإيجار».

لكن ما حدث حدث... فحين أقدمت شركة «ديون» على شراء هذا المبنى، رفعت الإيجار بشكل غير معقول، فكان الأمر بمثابة القطرة التي أطفحت الكيل. وها آنا تشهد على خسارة ما تبقى من البضائع التي جمعتها بكل جهدٍ وعناية لتمسي اليوم حصةً انتزعها جامع تحفٍ خاص بسعرٍ زهيد.

لكن عزاءها الوحيد كان أنها سددت ديونها مستعينةً بالمال الذي

قبضته. كما استطاعت أن تدفع الديون التي يطالبها بها المصرف وأن تترك الميدان وهي لا تملك غير كبريائها، تماماً كما فعلت مع «دايفيد».

لا، لن تفكر في دايفيد. فشارع الذكريات حلقة مفرغة تؤدي بها دائماً إلى ألم لا ينطفىء. استقامت آنا بثبات ثم تقدمت نحو المنضدة الخشبية، وخطواتها ترجع صدى بعيداً في الفراغ. بعدئذٍ، تناولت معطفها وحقيبتها بالإضافة إلى الصندوق الصغير القابع هناك وفيه عمل نهاية الأسبوع كلّه.

ما إن قامت كليو وآنا بتبادل هدايا الميلاد حتى سألتها كليو: «أتقابلين بول خلال العطلة؟».

فأجابتها آنا بحزم: «لا».

ثم تابعت: «صحيحٌ أنه أراد رؤيتي إلا أنني أجبته بالرفض خوفاً من تجديد آماله».

ـ بإمكانك أن تقدمي على ما هو أسوأ.

كانت كليو قد قامت بواجب التعريف بينهما، لهذا أحسّت بالمسؤولية التي عهدت إليها. فأضافت: «أعلم أنه يكبرك بخمسة عشر عاماً، لكنه محامٍ محترم جداً، يملك بيتاً في غاية الجمال، وهو غير قبيح. بربك، ماذا يمكنُ لفتاةٍ أن تطلب أكثر؟».

وكأن كليو أبت إلا أن يشاركها الجميع السعادة التي غمرتها في ظل زواجها هي، لذلك واصلت إلحاحها: «أنت معجبة به، أليس كذلك؟».

شعرت آنا برغبة شديدة في القول: «ليس تماماً».

لكنها وافقتها: «نعم، إنه لطيفٌ جداً».

ـ وأنت تحبين الأطفال.

كان بول أرمل وله ابنةٌ تبلغ من العمر تسع سنوات. أقرت آنا: «نعم، أحبهما، فصوفي فتاةٌ لطيفة. لكن هذا لا يعني أنني أرغب أن أكون زوجة أبيها».

تنهدت كليو معلنةً استسلامها للوقت الحاضر وسألتها: «ما مشاريعك

لعطلة الميلاد؟».

ردت آنا برفق: «أرغب فقط في استراحة صغيرة وهادئة».

لكن الخدعة لم تنطل على صديقتها ولو لبرهة، فاستنتجت: «هذا يعني أنك ستكونين وحيدةً. لم لا تزوريننا مجدداً؟ بل لمَ لا تمضين عطلة نهاية الأسبوع بكاملها».

كان آلن، زوج كليو، رجلاً هادئاً، بل قل خجولاً، لا يحبذ الاختلاط بالناس كثيراً.

ـ أشكرك، لكن لا أظنني أفعل.

استدركت كليو وهي تعلم سبب رفض آنا: «لا تكوني سخيفة، آلن لن يمانع».

قد لا يمانع حباً بزوجته ورغبةً في إسعادها، لكن الأمر لن يعجبه بالتأكيد، وسيفضل الانفراد بعائلته. غير أن كليو راحت تحثها: «كما أن التوأمين سيبتهجان. قد يقدمان على إيقاظك عند انبلاج الفجر، لكنني أفضّل ذلك على رؤيتك تمضين ميلاداً وحيداً بجانب السرير».

خشيت آنا أن تكون دعوة كليو من باب الواجب فحسب، وأن تكون راغبة فعلياً في قضاء الميلاد برفقة زوجها وولديها. فأصابتها مجرد الفكرة بالقلق واندفعت تجيب: «شكراً جزيلاً، لكنني لن أكون وحيدةً حقاً. فالكثير الكثير ينتظرني».

ـ حسناً. لن أحاول أن أقنعك، لكن إن غيرت رأيك في الدقيقة الأخيرة، لا تترددي في المجيء.

وبالفعل، في هذا الصباح، وفيما آنا تتناول وحيدةً طعام الفطور المكون من الخبز المحمص والقهوة، وفيما اليأس يحفر طريقه إلى قلبها، غيّرت رأيها.

فهي تتحمل أي شيء إلا أن تستيقظ صباح الميلاد وما من مشروع في رأسها إلا قضاء اليوم في غرفتها الضيقة. وبعد تردد، قررت في النهاية أن

تزور كليو.

وها هي الآن، تمسك صندوقها بيدٍ، فيما حقيبتها ملقاة على كتفيها. . وأطفأت الأنوار وأحنت رأسها القاتم الشعر تحت القبة المنخفضة لتغلق الباب الأسود وراءها. . رمت المفتاح في حقيبتها ثم رفعت ناظريها إلى اللافتة السوداء التي تزين أعلى النافذة، كانت الأحرف الذهبية تقول: «سافانا ساندرز: مخطوطات وكتب نادرة».

وفجأة، غادرها الشعور بالخيبة واليأس الذي كان يلازمها منذ أسابيع خلت، وإستحال احساساً عميقاً بالفراغ لا يفارقها. . كان الثلج يتساقط خالعاً على الرصيف وشاحه الأبيض فيما الندف تتهادى باردة، صغيرة ولزجة، فتحيط بمصابيح الشارع كما الغبار يسبح في مساحةٍ منيرة. بعدئذٍ، وضعت غطاء الصوف فوق أذنيها وأخذت تمشي بحذرٍ على طول الطريق الزلقة سعياً إلى مرآب السيارات خلف الساحة القديمة.

انقشع الضباب عن الساحة قليلاً، فكشف عن واجهات المتاجر التي أضيئت بالأنوار، فاستطاعت حينئذٍ أن تتلمس طريقها عبر ممرٍ ضيق يقع خلف المحال، إنما ظلت العتمة تسيطر على المكان.

باستثناء بضع سيارات موزعة هنا وهناك كان الموقف خالياً من أي انسان. أحياناً، كانت تظهر لها أطياف قاتمة بين مساحات النور المتفرقة. وما إن انحنت آنا لتفتح باب سيارتها، حتى أحسّت بحركةٍ إلى جانبها، فانتصبت تطرق السمع فجأة. كان الثلج قد أسدل غطاءً ناصعاً على المكان الفارغ، إلا أن حاستها السادسة ظلت تنبئها أن أحدهم يقوم بمراقبتها. اخذت القشعريرة تسري في بدنها فيما هي تحاول إقناع نفسها بالعكس. أخبرت نفسها أنها تتصرف بغباء وأن ما من أحد في الخارج، إلا أن محاولاتها جميعاً ذهبت سدىً. أخذت تمعن النظر في هذا الضباب، وإذا بهر أسود كبير يظهر فجأة أمامها ثم يجري باتجاه الحائط ويقفز نحو باحة أحد المحال. عندئذٍ، أطلقت تنهيدة ارتياح ثم قالت لنفسها وهي ترفع

صوتها: «ألم أقل لكِ؟».

وبعد أن رمت حقيبتها وصندوقها في المقعد الخلفي، جلست وراء المقود لتدير المحرك. حين دار المحرك أخيراً، مسحت زجاج السيارة آلياً ثم أضاءت الأنوار، وراحت تقود بعناية وسط الثلج.

كانت قد بدأت تسرع حين ظهر أمامها في الظلام طيف رجلٍ خرج فجأةً من بين سيارتين، ليعترض طريقها. فما كان منها إلا أن داستْ على الفرامل، وانحرفت جانباً، فانزلقت الدواليب فوق الثلج. ولم تستطع أن تستعيد التحكم فيها إلا بعد أن مالت واصطدمت بحاجز.

لبدت لثانيةٍ أو اثنتين خلف المقود، وهي ترتجف بشدة، فيما تفكيرها كله منصبٌّ على الرجل الذي تفادته والحمد لله. أم تراها لم تفعل؟

فلن يخفى على أحد أن الرجل كان قريباً جداً. وفي هذه الثواني القليلة التي مرت غامضة بلمح البصر، كادت تصدمه فعلاً. أمعنت النظر إلى الخارج، فلم تبصر له أثراً. هنا، أوجست شراً، إذ يحتمل أن يكون مصاباً أو مجروحاً، ففتحت الباب على عجلٍ وترجلت من السيارة. كان خيال قاتم ممدداً على الأرض وإلى جانبه كيسٌ أفرغ من محتوياته.

أسرعت إليه وقد تنفست الصعداء لا سيما حين رأته يحرك رجله، وسألته بقلق: «هل أنت بخير؟».

- على ما أظن، إذا ما استثنيت الإصابة الطفيفة في ذراعي.

بدا في صوته عمق وجاذبية، أشبه بصوتٍ راقٍ في طياته لهجة لم تستطع أن تحددها.

- إذن، لقد صدمتك حقاً؟ أنا آسفة جداً.

- بالكاد فعلتِ. . لكنها كانت صدمة كافية لتفقدني توازني فأسقط أرضاً، لقد وقعت على كتفي.

فكررت: «أنا في غاية الأسف».

- ليس الذنب ذنبك، بل أنا الملام الوحيد. فلو أدركت أنك قريبة بهذا

القدر . . . ولو لم أتقدم فجأةً أمامك لما حدث أيٌ من هذا .

ثم قام وجمع الكيس ومحتوياته بيدٍ واحدة ، وتحرك بعيداً عن الظل ، فبدا لها طويلاً ، عريض المنكبين ، يبلغ طوله ست أقدام تقريباً . أما معطفه وسرواله فبدوا غالبي الثمن رغم اتساخهما بسبب سقوطه على الأرض ، وبدا لها أيضاً أن يده اليسرى لم تسلم من الحادث ، فسألته باهتمام : «أأنت متأكد أنك بخير؟» .

بعد محاولات جاهدة في رفع يده ، أقرّ : «يبدو أنني لا أحس بذراعي في الوقت الحالي» .

ـ يجدر بك أن تذهب إلى قسم الطوارىء . . .

ـ عشية الميلاد؟ غير ممكن أبداً! لا أظن أن إصابتي خطيرة ، وسأتمكن على ما أظن من القيادة .

فاحتجت قائلة : «لا أظن أن حالتك تسمح لك بالقيادة» .

ـ قد يكون معك حق لكن في كلتا الحالتين ، علي أن أستقل سيارة أجرة .

ثم أضاف بكآبة : «لكنني في البلدة منذ بعد الظهر ولم أرَ سيارة واحدة . إنها قليلة ولا تصل إلى هذه الناحية» .

كان محقاً . فالشركة الأساسية لسيارات الأجرة في البلدة أقفلت منذ مدة وجيزة ، ومع ذلك لم تحلّ أي شركة أخرى محلها . اقترحت : «لو شئت ، أوصلك إلى بيتك» .

ـ لا يمكن أن أحملك هذه المشقة .

فهزت رأسها نفياً : «هذا أقل ما يمكنني فعله ، أين تسكن؟» .

ـ عند طريق القصر القديم .

أخذت تفكر ملياً ، فلم تذكر أي بيتٍ في ذاك الشارع الهادىء ، باستثناء قصر المانور . لكنها منذ انتقلت للعيش في هذه البلدة وهي تشهد انبثاق عقارات جديدة هنا وهناك . فأجابت بنشاط : «ليس في الأمر مشقة تذكر ، بل أنا ذاهبة في هذه الناحية عينها» .

تعيش كليو وعائلتها في تلك النواحي فعلاً ، ولكنهم مع ذلك غير بعيدين عن البلدة كثيراً .

ـ إذا كانت هذه هي الحال ، فسأقبل عرضك السخي . هلاّ كنت لطيفة وأمسكت بهذا حتى أجمع أغراضي؟ .

حين أراحته آنا من حمله الثقيل ، ووضعته في صندوق سيارتها ، اتجه نحو سيارة لاغونا سوداء قريبة . ومن خلال الثلج المتساقط ، رأته يمسك محفظة بحثاً عن المفاتيح ، ثم رأته يفتح صندوق سيارته بيدٍ واحدة ، ويحمل علبةً من المشتريات ، وكأنه كان يبتاع الأغراض لزوجته .

ـ اسمح لي . . .

وما إن انضمت العلبة إلى قائمة الأغراض الأخرى في المقعد الخلفي حتى دعته للدخول ، فاستقل المقعد إلى جانبها وأدار رأسه لينظر إليها .

وفي الحال ، وقع نظره على وجه فيه من الجمال ما يسحر القلوب : أهداب طويلة وعينان لوزيتان ينضح منهما لون خشبي غامق . أما الخدان فعاليان والأنف مستقيم ، فيما الفم جميل يعلو ذقناً مدوراً ناعماً ، وقد عقصت الشعر الأسود الطويل بعقدةٍ ، فبدا وكأنه يلمع في الثلج .

وكذلك هي ، نظرت إليه جيداً حالما غمرهما ضوء السيارة ، وإذا بها تبصر ما يصعقها تماماً .

ظلت لبرهةٍ طويلة مسمرة في مكانها تحت تأثير الصدمة ، فكل ما فيه ، من نظرته الجانبية ، إلى شكل رأسه فذقنه المشقوق ، يذكرها بدايڤيد . . . لكنه . . . ليس دايڤيد حقاً .

كانت عيناه خضراوين تلوح فيهما ألوان ذهبية . . . لكن عينيّ دايڤيد زرقاوان أما شعره إذا ما كان جافاً فأشقر كما الثمرة اليانعة ، وهو في ذلك يتضارب تضارباً ساحراً مع القاتم من أهدابه وحاجبيه لكن أهداب دايڤيد وحاجبيه شقراء كشعره . ووجه هذا الرجل الجميل الأسمر ، صلب العود قاسٍ ، أما وجه دايڤيد فناعمٌ كما الأطفال .

أضف إلى أنه قد شارف على الثلاثين لا محال، فيما دايفيد لا يتجاوز الثانية والعشرين. وهو يصغرها بسنةٍ واحدة.

لا، لم يكن يشبه دايفيد في شيء.

ومع ذلك إنه يؤثر فيها كما دايفيد، بكل قوة، بكل سرعة، وهذا ما يقضي على رباطة جأشها ويخطف منها أي ثقة بالنفس. وهنا سألها: «أتعانين من سوء؟».

ـ لا..

كاد صوتها المرتعش يفضحها لكنها أضافت: «أعدتَ إليّ لوهلةٍ ذكرى إنسانٍ عرفته».

ثم أشاحت بوجهها مسرعة، وأدارت المحرك وراحت تقود بحذر نحو مخرج المرآب.

كان مركز البلدة متوهجاً بالأنوار والزينة الساحرة فواجهات المحال مزدانة ببهجة العيد. حول الشجرة القائمة في سوق الساحة القديمة، وقفت مجموعةٌ من المرتلين ينشدون الترانيم الميلادية. وكانت اللمسة النهائية، من نصيب الثلج الذي تهادى على البلدة بشكل كان ليعد مزعجاً في أي وقتٍ آخر من السنة.

ـ لكأنه مشهدٌ من بطاقةٍ بريدية.

بدا تعليق الراكب مع آنا وكأنه انعكاسٌ لأفكارها الداخلية. فوافقته القول: «أجل».

وفجأةً، ألفت نفسها، بفعل تأثيره القوي، تفيض في الحديث: «شهدنا مؤخراً طقساً متقلباً جداً. في البدء، كان الجو معتدلاً، لكننا، منذ يومين فقط، واجهنا عاصفةً هوجاء ورياحاً عاتية تسببت بالكثير من الخسائر المحلية. إنه الميلاد الأبيض الأول الذي ننعم به منذ مدة طويلة».

أجابها: «أنا مولعٌ بالثلج، فمنذ سنين طويلة لم يقع نظري عليه».

ـ أنت لا تعيش في لندن إذن؟

ـ إني أعيش فيها الآن. فالهائم على وجهه قد عاد أخيراً إلى حضن الوطن.

ـ أعدت منذ زمنٍ طويل؟

ـ منذ يوم أو اثنين.

ـ من أين أقبلت؟

ـ من الولايات المتحدة. فبعد أن تركت الجامعة، قضيت وقتاً أسافر حول العالم، قبل أن أحط الرحال أخيراً على سواحل أميركا الغربية. في نهاية الأمر، طرقت مجال برمجة الكمبيوتر ثم اشتريت منزلاً على الساحل واعتنقت النمط الكاليفورني في العيش.

فتمتمت آنا: «شمس وبحر ورمال؟».

ـ باختصار.

ـ يا لحظك السعيد!

ـ لكن نمط الحياة هذا يبعث الملل في المرء بعد فترة. لذا وجدتني مشتاقاً إلى الحياة الريفية وفصول انكلترا المتغيرة... مشتاقاً إلى مطر نيسان ونرجسه، إلى رائحة الصيف والتبن المخزن حديثاً، إلى برودة تشرين الأول واوراقه المتساقطة.. مشتاقاً إلى ضباب تشرين الثاني وموقد الحطب فيه... ما من شيء كان ليبقيني في كاليفورنيا، فأعمالي توسعت حتى شملت العالم بأكمله. لهذا، حين سنحت لي الفرصة، قررت أن أقفل راجعاً إلى الوطن.

لم يقدم على ذكر أي زوجة، لكن يستحيل على رجلٍ بمثل هذه الجاذبية أن يبقى أعزب، أو على الأقل، غير مرتبط. هنا، استجمعت أفكارها الشاردة وسألته: «أنت إذن تعتبر هارتينغتون وطناً لك؟».

ـ لقد ولدت وترعرعت هنا.

ثم تابع بتأنٍ: «وبالتحديد في هارتينغتون مانور».

مع أن عينيها كانتا مسمرتين على الطريق إلا أنها أحست به يراقبها

بتركيز وكأنه ينتظر ردة فعل ما.

ـ هارتينغتون مانور؟ ألم يكن السير آين سترانج يعيش هناك؟

ـ هذا صحيح، وأنا «جيدون سترانج»، ابنه.

إنه السير «جيدون سترانج» ويفترض أنه يعيش في قصر مانور الآن.

باتت الآن أكثر إدراكاً لنظرته الممعنة فتمتمت بصوت متشنج: «أنا آسفة لموت أبيك في السنة الماضية».

فسألها بنبرة عادية: «هل عرفته؟».

ـ لا، لم أعرفه شخصياً، لكنه كان رجلاً معروفاً ومحترماً في البلدة وقد قام بالعديد من المشاريع الخيرية وتبنى الكثير من قضايا البلدة.

ـ نعم لطالما أحب أن يعرفه الناس كمحسن كريم.

بدت كلماته وكأنها تخفي سخرية ما عندما أضاف: «أحياناً، كنت أظنه سيخلف ممتلكاته جميعها للأعمال الخيرية. وتصورت قصر مانور معقلاً للنساء اللواتي يعانين من سوء المعاملة أو معقلاً للقطط والكلاب الشاردة».

ثم أضاف بابتسامة جانبية سريعة وساخرة: «لا، لا أملك شيئاً ضد هؤلاء النسوة، أو تلك الكلاب السخيفة. ومع أن المانور أصغر من أن يعدّ منزلاً فائق الفخامة، إلا أنه مكان عتيق وجميل. كان من السوء، لو خسرته العائلة، فقد تناقلته أسرة سترانج منذ عهد الملكة اليزابيث».

إذاً لماذا رغب السير آين بحق السماء أن يترك منزله للأعمال الخيرية بدل أن يورثه لابنه؟ وكأن جيدون أراد أن يجيب عن سؤال آنا المكتوم، فتابع قائلاً: «أخشى أنني ووالدي لم نتفق كثيراً».

بدا لها أنه اختار كلمته بحكمة لكنها وجدت خلفها تصريحاً مكبوتاً.

ـ كان يقدم على تعزيز صورته أمام الناس بعناية، إلا أن حقيقته كانت غير ذلك، أظنه لم يسامحني يوماً على تعبيري عن رأيي بصراحة.

لم تعرف آنا ماذا تقول. وأخيراً، فضلت ألا تنبس ببنت شفة.

وبعد صمت قصير اختار مرافقها أن يغير الموضوع فسألها: «أتنتمين إلى هذه الأنحاء؟».

ـ نعم، بعد دقيقة تماماً، سنعبر المكان الذي ولدت ونشأت فيه. . إنه هناك. . . أيمكنك أن تراه، رغم الثلج؟ سلسلة الأكواخ إلى اليمين كانت تشكل في ما مضى القرية القديمة، كان كوخنا الثاني من الخلف.

أضافت وهي تحس باختناق في حلقها: «لطالما أحببت كوخ درام».

ثم تابعت وهي تبتلع أنفاسها: «كانت كليو، أي صديقتي التي سأمضي برفقتها عيد الميلاد، تسكن في المنزل المجاور».

ـ ألم يتبق لك أفرادٌ من أسرتك؟

ـ لا. . . مات أهلي وأخي الأصغر في حادث قطار قبل أربع سنوات.

وما زالت هذه الذكرى تؤلمها رغم مرور كل هذا الوقت.

وكأنه كان يعلم ذلك، فاكتفى بالقول: «هذا صعب».

وبعد برهة، تابع: «إذاً ستمضين الميلاد برفقة صديقتك؟».

ـ نعم، لقد رفضت العرض في البداية. فزوج كليو لا يحبذ الزوار. لهذا، لم أشأ التطفل. ولكن سرعان ما غيرت رأيي لأجد نفسي. . .

ووجدت آنا نفسها تثرثر مجدداً، فآثرت أن تلزم الصمت. في هذا الوقت، كانا قد بلغا ضواحي البلدة، وعبرا العقار الجديد حيث تسكن كليو وعائلتها في منزل مرتب ومستقل تقريباً. ما إن اختفى وراءهما آخر مصباح في الشارع، حتى بدآ يصعدان التلة حيث القصر القديم، وكانت أضواء السيارة تقودهما بين الأشجار، فوق ستار ثلجي ناصع البياض.

ـ إذن، أين تسكنين يا آنا؟

ـ لدي مسكن في شارع غرافتون.

ثم استدركت وسألته بحدة: «لماذا دعوتني آنا؟».

ساد صمت ملحوظ لفترة قصيرة قبل أن يجيب: «أتفضلين أن أدعوك سافانا؟».

ـ لا، لطالما سميت آنا، لكني أقصد كيف عرفت اسمي؟

ـ إنه معروض على اللوحة فوق متجرك ساڤانا ساندرز، لاسمك وقعٌ خاص.

ـ كيف عرفت أن المتجر لي؟

ـ لقد مررت به بعد هذا الظهر ولمحتك من النافذة.

فما كان منها إلا أن قطبت وسألته: «وكيف استنتجت أنني المالكة؟ من الممكن أن أكون أي زبونة».

ـ بدا لي المتجر خالياً من البضائع، وكنت تمسكين المطرقة بعزم بالغ.

وقبل أن تشير إلى سؤالها الذي بقي من دون إجابة، واصل كلامه: «بدا لي أن متجر ساڤانا ساندرز في طريقه إلى الإقفال».

أجابت بفتور: «إنه مقفل».

ـ أهي خاتمة عملك، أم نهاية حلم؟

كان نفاذ بصيرته خارقاً للحدود.

ـ بل الجواب الأخير. فمنذ صغري وأنا أحلم بإدارة مكتبتي الخاصة؟

ـ ماذا حدث؟ أتشكين من قلة الزبائن أم من قلة المال؟

ـ الإثنين معاً. فموجة السياح تزداد صيفاً. لكنه لا يسعني أن أنتظر حتى ذلك الوقت. فقد سحبت كل رصيدي في المصرف، وقام المالكون الجدد برفع كلفة الإيجار.

ـ ماذا ستفعلين؟

كان هذا السؤال نفسه الذي طرحته كليو. فقدمت آنا الإجابة عينها: «ما إن ينتهي عيد الميلاد، حتى أبدأ بالبحث عن عمل».

ـ كمساعدة في مكتبة ربما؟

فبادرته إلى القول وقد أحست بلسعة تصيبها: «أنا أمينة مكتبة مجازة».

ـ نعم حقاً. لا يسعني التفكير بالفرص اللانهائية التي تنتظر أمينة مكتبة مجازة مثلك، في بلدةٍ بهذا الحجم.

هنا، أحست بالسخرية التي ينطوي عليها أدبه الجم في سؤاله. فردت بالصمت.

فما كان منه إلا أن واصل: «لذلك ما زلت موجودة. أم تراك تعتقدين أن المدن الكبرى لا تلائمك؟».

بدا صوته حافلاً بموج ناري هادىء تنير به البراكين قبل انفجارها.

ـ أعرف أنها لا تلائمني. فلقد عشت في لندن وعملت فيها بعد أن تركت الجامعة، وكنت في غاية السعادة حين رحلت عنها.

ـ أعملت في مكتبة؟

هزت رأسها نفياً: «بل كسكرتيرة».

ـ لكنك واظبت بلا ريب على تنمية ذلك الحلم البعيد.

مع أن قوله كان أشبه بملاحظةٍ لا سؤال، إلا أنها وجدت نفسها تبادر إلى الإجابة: «نعم. وقد اعتدت أن أذهب إلى المزادات العلنية ودوائر المبيعات أيام عطل نهاية الأسبوع، وفي أوقات فراغي لأجمع بعض المخطوطات النادرة والطبعات الأولى، حتى أؤسس عملي الخاص».

فعلق بجفاف: «يا له من مشروع مكلفٍ حتى بالنسبة لسكرتيرة تتلقى راتباً مميزاً!».

ـ كنت أملك مبلغاً من المال.

ثم شعرت بالضيق، لأنها تركت غريباً يحثها على البوح بالكثير، فعادت إلى صمتها وراحت تركز على القيادة عند أعلى التلة الطويلة. التفت حول الأشجار الجرداء حيث كانت تجمع أزهار الربيع في صغرها، ثم اتجهت نحو طريق القصر القديم. كانت أنوار رمينغتون في الأسفل قد تلاشت الآن خلف ستارةٍ من الثلج. واقتصرت مهمة المساحات الآلية على المحافظة على نظافة الزجاج ثم ألقت نظرة خاطفة إلى اليمين، فأبصرت جدار مانور القرميدي القديم. صحيح أن رداءة الطقس والظلام الدامس منعاها من تحديد المسافة، إلا أنهما على ما يبدو غير بعيدين عن البوابة

الرئيسية.

وكأن مرافقها كان يقرأ أفكارها، فقد كسر جدار الصمت قائلاً: «ما زال أمامك مئة يارد تقريباً وحسب. سترين المدخل بين لحظةٍ وأخرى».

وما إن انتهى من كلامه، حتى كشفت الأضواء عن المدخل.. لم تر آنا في حياتها تلك البوابة الحديدية الكبيرة إلا مقفلة، أما الآن، فها هي مفتوحة على مصراعيها. قادت السيارة في الممر بتأنٍ بين صفين من الأشجار الطويلة، ثم علقت قائلة: «يبدو لي أن الطقس يزداد سوءاً. لا شك في أن زوجتك ستسر بعودتك».

ـ ولماذا تعتقدين أن لي زوجة؟

ـ في الحقيقة... بما أنك قمت بكل هذه المشتريات...

ـ على العازبين المساكين أن يأكلوا أيضاً!

لا شك في أنه كان يسخر منها. فأجابت بقساوة طفيفة: «بالطبع».

وسرعان ما كشفت مصابيح السيارة من خلال الثلج عن ملامح منزلٍ نوافذه مظلمة، منزلٍ بدا لها مهجوراً تماماً. لكن هذا لا يعقل طبعاً، فمنزل بحجم هارتنغتون مانور في حاجة بلا ريب إلى مجموعة من الخدم. إنما لماذا تراه يقوم بمشترياته بنفسه ما دام هناك خدم؟

حين ركنت السيارة جانباً، تذكّرت ذراعه الجريحة، فسألته: «أأساعدك في نقل المشتريات؟».

ـ سأكون شاكراً. هلا بقيت هنا ريثما أفتح الباب وأضيء الأنوار. في العادة، تقوم الأضواء تلقائياً بهذه المهمة، لكن العاصفة التي ذكرتها من قبل قضت عليها. نعم نحن نملك مولداً للحالات الطارئة، لكن طاقته ليست كبيرة للأسف.

ثم استرد منها الكيس، فراحت هي تراقبه يعبر الثلج نحو المنزل. بدا منظره غريباً. كان يحمل الكيس تحت ذراعه السليمة ويبحث عن المفاتيح في جيبه، ليفتح الباب. بعد برهة، أضيئت أنوار القاعة وسطع مصباح فوق

الباب. فأسرعت تطفىء محرك السيارة، كي تحافظ على البطارية، ثم أمسكت بالصندوق وتبعته إلى الداخل، أما هو، فأقفل الباب سريعاً، ليمنع الثلج من اقتحام البيت، وعبر القاعة الكبيرة حتى وصل إلى مطبخٍ فسيح أرضيته مرصوفة وموقده كبيرة.

أمام المدفأة حيث يشتعل الحطب، أبصرت كرسيين إلى جانب طاولة صغيرة. وتحت رف من الرفوف المرتبة بأناقة، لمحت مجموعة من الأوعية النحاسية وغلايات الشاي، ولاحظت كم تم التزاوج بين القديم والجديد بعناية دقيقة. لم يكن ينقص من المشهد إلا الخدم.

وضعت آنا الصندوق على طاولة من خشب السنديان، ثم اتجهت نحو الباب، فبادرها جيدون بالقول: «قبل أن تهمي بالخروج.. لدي عرضٌ أقترحه عليك».

ثم أضاف بسخرية حين رآها تتسمر في مكانها: «آه! أؤكد لك أن عرضي لا يفتقر إلى التهذيب. كل ما في الأمر أنك بحاجة إلى عمل وأنا بحاجة إلى أمينة مكتبة ذات خبرة في السكرتارية؟».

نظرت إليه بحذر، وهي تتساءل هل في قوله دعابة ما.

ـ دعيني أشرح لك باختصار. تقدم لي شبكة الإنترنيت إمكانية الدخول إلى الأسواق العالمية، وتمكنني من شراء البضائع والخدمات، ثم بيعها وإلى ما هنالك، وحالما استقر هنا، سأقوم بإدارة أعمالي المنتشرة عالمياً من المنزل، ومن هنا، حاجتي إلى سكرتيرة.

ـ ماذا عن أمينة المكتبة؟

ـ كما تعرفين في هارتينغتون مكتبة ممتازة. لكنها تتعرض للإهمال منذ مدة، أود أن أراها مرتبة ومنظمة وفق فهرس معين. أما بالنسبة للراتب، فكنت أفكر في...

وسمى مبلغاً من المال لا يمكن لأي إنسان طبيعي أن يرفضه. وحين أخذت تحدّق فيه بغرابة، أضاف: «أرجو أن تجدي المبلغ مقبولاً».

بدت في نبرة صوته نبرة معينة دفعتها للتساؤل إن كان يتوقع عرفاناً بالجميل أم حماسة مستفيضة. وقبل أن تتمكن من العثور على الكلمات، تابع: «إن قبلت هذا المركز، يمكنك البدء بالعمل بعد العطلة مباشرة».

وحل عليهما صمت لم تستطع خلاله أن تستجمع أفكارها.

ومن ثم، شعرت بضرورة البوح بكلمات لا تلزمها بأي تعهد، فتفوهت بأول ما خطر في بالها: «ما حجم المكتبة؟».

ـ بالنسبة للمعايير الخاصة، إنها كبيرة جداً.

ثم راح ينصب لها الطعم قائلاً: «لم لا تلقين نظرةً عليها؟».

فانطلت عليها الخدعة: «أود ذلك».

حتى لو رفضت العرض، ففرصة أن تلقي نظرة على مكتبة مانور لا تعوّض.

ـ أرجوك، تصرفي على راحتك.

لكن، لم تبدر عنه إشارة بالتحرك، فانتظرت وهي تحس بالضياع.

بدا لها شارد الذهن، لكن لم تمضِ ثوانٍ قليلة حتى قال: «لم لا ترافقينني؟ سأدلك على المكتبة».

تقدمها على طول القاعة حيث ارتفعت سلالم مهيبة في كل ناحية من الغرفة، إلى جانب ذلك، لمحت أجراساً نحاسية كبيرة، وضعت بشكل غير متناسق. بعد ذلك، وصل إلى أحد بابي السنديان في الخلف، ففتحه وأضاء الأنوار.

ـ لم يصل الدفء إلى هنا. فالتدفئة المركزية تعمل على الكهرباء، وهي معطلة حالياً.

ثم أضاف: «لعلك تحتاجين إلى كوب من الشاي؟ إذ يلزمني كوب فعلاً. سأذهب لاحضّر الغلاية فيما تلقين نظرةً حولك».

ثم أغلق الباب بهدوء، مخلفاً إياها وحيدةً وابتسامة صغيرة على وجهه.

* * *

٢ ـ ليلةٌ بلا حظ

كانت المكتبة عالية.. إنها غرفة جميلة فيها موقد حجرية، لنوافذها قضبان حديدية. كانت تمتد على كل جدار رفوفٌ حافلةٌ بسلسلة من الكتب، أدخلت البهجة إلى قلب آنا. وللوهلة الأولى، بدا لها المكان غايةً في التنظيم، فلم تلحظ الإهمال الذي اشتكى منه جيدون سترانج.

في إحدى زوايا الغرفة وجدت سلماً لولبي الشكل مصنوعاً من خشب السنديان المحفور بشكل جميل له درابزين يلتصق حول الدرجات. خلعت حذاءها وأخذت ترتقي درجاته فوجدت أن بمقدورها الوصول إلى الرف الأعلى. لا شك في أن العمل هنا سيكون متعةً لا تضاهى! لكن، هل تريد حقاً أن تعمل لحساب جيدون سترانج؟

كان جزءٌ منها يرغب في ذلك بشدة، أما الجزء المتعقل، فكان يحذرها لأنها لم تنسَ بعد كيف شعرت بانجذاب شديد إليه، ولد فيها انزعاجاً لا يحتمل، إن لم نقل أكثر. كل ذلك، لأنها تخيلت فيه شبهاً لدايفيد. لكن، أيعقل أن ترفض فرصةً كانت لترحب بها أشد الترحيب لو أن مستخدمها رجلٌ غير جيدون سترانج؟

ماذا لو طلبت بضعة أيام للتفكير؟ فمن يدري، قد تغير رأيها بحلول عيد الميلاد، وتتمكن من مواجهة الواقع برباطة جأش.

ولكن، من تحاول أن تخدع؟ فسحر جاذبيته وقوة شخصيته خطرٌ كفيلٌ بأن يهدد راحة بالها. ومع أنها لم تره إلا لفترة قصيرة، فقد بدا لها

سحره طاغياً، يخطف الأنفاس، والأسوأ أن فيه لمحةً من التكبر لا ينساها المرء بسهولة.

لكأنه دايڤيد، إذا استثنينا منه النضج والإدراك!

لا، إنها مخطئة. فهم دايڤيد، يفتقر إلى تلك القوة، لا بل يكاد يكون ضعيفاً. وفيما هي تتغلغل في أفكارها، لاحظت أن ذكرى دايڤيد تتلاشى، حتى غدا سطحياً وواهناً بالمقارنة مع جيدون سترانج. وهذا ما ضاعف عزمها على رفض هذا العرض المغري. لقد أحرقها اللهب مرةً، لذا أصبح فيها من الإدراك ما يدفعها إلى الفرار من كتلة النار هذه، لا بل الفرار بعيداً.

وفجأةً، استرعت انتباهها ندف الثلج وهي تنظر من النافذة. كانت الستائر المخملية قد رفعت، فاستطاعت أن تلاحظ الكتل الماسية وهي تخترق ستار الظلام. وبدا لها الطقس وكأنه ينذر بعاصفةٍ أشد عنفاً. فقررت أن تهرع إلى منزل كليو مباشرةً، حيث تنعم بجو من الراحة والبساطة والدفء. وما كان منها إلا أن نزلت درجات السلم بحذر، ثم انتعلت حذاءها وأطفأت الأنوار، لتعود مجدداً إلى المطبخ.

وجدت جيدون سترانج لا يزال مرتدياً سترته، وهو مكب على ترتيب أواني الشاي في طبق. بدا لها أطول من ذي قبل، وقد علت رأسه خصلات شقراء بللها المطر. وألقى عليها نظرة سريعة ثم تمتم: «ها أنت! لقد أصبح الشاي جاهزاً».

وما إن تناهت إلى مسامعها نبرة صوته، وطالعها وجهه مباشرةً، حتى أدركت أنها لم تخطىء، والحري بها ألا تقع في فخ السحر القوي مجدداً.

أجابته مسرعة: «أشكرك، ولكن لا وقت لي لذلك».

أبقى على الهدوء في نبرته، وقد أبى الرفض جواباً: «تناولي فنجاناً واحداً على الأقل. لا شك أنك تتوقين إلى ذلك».

ومع أنه كان محقاً، إلا أنها في الحقيقة تتوق إلى الهروب من هذا

المكان أولاً.

سألها بتهذيب: «أأضيف الحليب والسكر؟».

- بل القليل من الحليب، إذا سمحت.

وبيدٍ واحدة، راح يتلمس زجاجة الحليب وهو يحاول أن يفتحها بصعوبة، فبادرت إلى القول: «دعني أفعل ذلك».

وشرع يتأملها وهي تفتح غطاء القنينة، وتصب السائل في فنجانها، فأردف بتروٍ: «قد أحتاج إلى المساعدة حتى أعتاد على هذه الذراع اللعينة».

- لكن، لا يعقل أنك تسكن هنا بمفردك.

ومن دون أن يجيبها، سكب الشاي في فنجانين ثم سلمها واحداً وهو يقترح: «لم لا تجلسين قليلاً؟».

لكنها ظلت واقفة، وعلى لسانها اعتراضٌ ودهشة: «لا شك في أن في المنزل خدماً، أعني... بما أنه كبير جداً».

وسرعان ما توقفت تجنباً لتلعثم فاضح.

- يشغل المنزل عادة الكثير من الخدم والحشم، لكن أحداً لم يقطن في المانور منذ وفاة والدي. ولم يبقَ فيه إلا ماري موريسون، سكرتيرة أبي، وزوجها آرثر، سائق السيارة سابقاً. إنهما يعيشان هنا قبل أن أولد، وهما يعتبران المانور بيتاً لهما.

- لكن إذا كانت سكرتيرة والدك ما تزال هنا، فما حاجتك إلى أخرى إذاً؟

ومن دون أن يطرف له جفنٌ، أجابها: «لأن ماري بلغت الستين من عمرها، وهي تتحرق شوقاً إلى حياةٍ هادئة مسالمة».

حين سكتت آنا عن الكلام، تابع: «لم يمضِ آل موريسون إجازةً هذه السنة، وقد أرادا قضاء الميلاد ورأس السنة في سكوتلاند برفقة أخت آرثر، لهذا طلبت منهما أن يسافرا للتو».

www.elromancia.com

أصابها شرحه المفصّل بالدهشة، فسألته: «إذاً ما من أحدٍ غيرنا هنا».
- لا بالتأكيد.
وأضاف بحماسٍ خفي: «نحن وحدنا تماماً».
كان في صوته من الرضا ما ولد فيها انزعاجاً فجائياً. فكتمت قشعريرة بدأت تسري فيها وراحت تكبت جماح مخيلتها، وهي تذكر نفسها أن جيدون ستراتج ابن أحد البارونات المحترمين، وهو المالك الجديد لهارتينغتون مانور، وهو بالتأكيد لا يشكل أي خطر، ولا ينوي أن يؤذيها بل لماذا يفعل ذلك؟ فهو مجرد غريب اضطرتها الظروف إلى اصطحابه إلى منزله، فعرض عليها وظيفة. ولو كان من مشاعر بين الإثنين، فلا شك في أنها مشاعرها. ولهذا، بالذات قررت رفض هذا العرض. وكأنه كان يقرأ أفكارها، سألها: «أتصور أنك توصلت إلى قرار؟».
تلعثمت: «أتعني بشأن الوظيفة؟».
ثم فكرت أن تكذب وهي تعلم أن الحديث عبر الهاتف سيكون أسهل.
- أحتاج إلى فرصةٍ للتفكير في الأمر، إذا كنت لا تمانع.
ومضت عيناه الخضراوان رداً: «بل كنت أتحدث عن بقائك هنا، ألا تظنينها فكرة جيدة لو أمضينا الميلاد وحدنا؟».
أجابته بقدر ما استطاعت من الأدب، وهي تقنع نفسها أنه يغيظها لا غير: «أشكرك على عرضك، ولكنني لا أستطيع. . . صدقاً».
وما لبثت أن أنهت فنجانها بأسرع ما يمكنها، ثم تمتمت وهي تحاول أن تكون في منتهى العفوية: «لا شك أن كليو تتساءل عن مكاني».
قطب حاجبيه السوداوين: «فهمت منك أنها لا تتوقع مجيئك».
فما كان منها إلا أن لعنت نفسها لأنها تفوهت بالكثير، ثم أجابت بتردد: «لكنها متأكدة أنني سأغير رأيي، فهي تعرفني جيداً. عليّ أن أذهب، فهما يتناولان العشاء في السابعة تقريباً».

تمتم بأسف: «حسناً بما أنني فشلت في إقناعك، فسأرافقك حتى الباب».
في هذه الأثناء، انطفأ التيار الكهربائي، وخبت الأنوار جميعها. وهنا، ارتفعت أنفاس آنا حتى بلغت مسامع جيدون.
اخترق الظلام بصوته الذي لا يشوبه أي قلق: «لا تخافي، أخشى أن عطلاً قد أصاب المولِّد. لازمي مكانك، سأحاول أن أجد شمعة».
ولم يكد يفرغ من كلامه، حتى أضيئت الأنوار مجدداً، لتضفي إحساساً بالراحة عليها، فأسرعت بالخروج من المطبخ لتبلغ الباب، وهي تحاول ألا تصور خروجها كفرار متعمد.
أما جيدون، فتقدمها على مهل، ثم اعترض طريقها وهو يدير ظهره إلى الباب الخشبي الأسود: «اعلميني بقرارك بشأن الوظيفة . . .».
- نعم. . . طبعاً، سأفعل.
- ما زال هناك أمر واحد.
هنا، تسمرت في مكانها، لا تأتي حراكاً، ورفعت وجهها إليه. وسرعان ما أحست بنفسها قصيرة القامة إزاء كتفيه اللتين توازيان الباب اتساعاً. فرفع يده إلى وجهها، وقبل أن تشير إلى نبتة الهدال المعلقة فوق الباب انحنى وغمرها بين يديها في عناقٍ عفوي. . ظلت لبضع ثوانٍ ساكنة، كانت خفقات قلبها تتسارع، فيما رأسها يدور بلا هوادة. ومن ثم، تنبهت لنفسها، وكأن ناراً أحرقتها، فهرعت نحو الباب وخطت خارجاً. وإذا بها تصدم بالمنظر الأبيض الذي غطى المكان، والعاصفة التي هبت منذ زمن.
فتقدم جيدون وأسدى إليها نصيحة: «من الجنون أن تقودي السيارة في جوّ كهذا».
إلا أن مجرد فكرة البقاء معه كانت تفوق القيادة رعباً. فأصرّت: «سأكون بخير حقاً، فالمكان ليس بعيداً».

كانت مصعوقة بتأثير هذا العناق البريء، وعرفت أنها لن تبقى هنا مهما حصل.

ـ حسناً اعتني بنفسك.

أومأت برأسها، ثم شقت طريقها من خلال أكوام الثلج التي تفصلها عن السيارة. أما جيدون فوقف عند عتبة الباب ينادي: «عمت مساءً آنا وميلاداً مجيداً».

فلم تعرف كيف ردت عليه: «أشكرك! ميلاداً مجيداً».

وبعد أن صفقت باب السيارة، ربطت حزام الأمان وراحت تبحث عن المفاتيح. لكن الأضواء بدت باهتة والمحرك رفض أن يعمل.

اقترب جيدون من نافذة السيارة وصرخ لها: «أطفئي الأنوار، ثم أديري المحرك».

فكررت محاولاتها، لكن من دون جدوى، فلما أخذ اليأس يتفاقم في نفسها، فتح الباب وأضاف بمرح: «إنه لا يدور».

جاهدت آنا كي تتكلم بهدوءٍ وسألته: «ألا يمكنك أن تتصرف؟».

ـ آسف للقول إنني لا أفهم الكثير عن الآلات.

وأضاف بظرف: «فحين حاولت أن أعبث بالمولد، لم أزد الطين إلا بلّة».

فاجأها رده فقد تصورته رجلاً قادراً على حل أي مشكلةٍ تصادفه وفي محاولةٍ للتعلق بأي أمل واهنٍ، سألته: «ألا تملك سيارة أخرى؟».

ـ لا، فقد بيعت السياراتُ التابعة للأسرة بعد وفاة والدي.

ـ إذاً، ما عليّ إلا أن أطلب سيارة أجرة.

ـ أشك في أن سيارات الأجرة تعمل في جوّ كهذا.

ـ لكن الطرقات الأساسية ما تزال سالكة على ما أظن. هل تسمح بأن نهاتف سائق أجرة؟

ـ الهاتف معطل. فقد اقتلعت العاصفة الأشجار، وقضت معها على

خطوط الهاتف... وأظن أن المسؤولين لن يصلحوها إلا بعد عطلة عيد الميلاد.

كان يصرخ بأعلى صوته، فيما صفير الريح يغطي كلماته.

ـ ألا تملك هاتفاً خلوياً؟

فرد عليها، وهو يشرّع لها الباب: «نعم، لقد استأجرت واحداً، لكنني خلّفته في سيارتي».

ثم أضاف فجأةً: «والآن، هلاّ دخلت إلى المنزل، قبل أن نتجمد حتى الموت؟».

فكرت لبرهةٍ في أن تعانده، لكنها سرعان ما تذكرت الأميال الخمسة التي تفصلها عن منزل كليو. أمن الحكمة أن تحاول السير إلى هناك في مثل هذه الليلة الهوجاء، وهي لا تنتعل إلا حذاء عالي الكعبين؟ بدا لها أن القدر نفسه يعاكسها وأحست أنها لا تملك أي خيار آخر، فترجلت من السيارة.

ـ أظن أنك ستحتاجين إلى هذه.

وما إن أتم جملته حتى أمسكت يده اليمنى بحقيبتها وصندوقها، ثم أغلق الباب وتقدم آنا إلى المنزل، أما هي فأطبقت أسنانها لتمنعها من الاصطكاك.

وبعد أن دخلا، دفع جيدون الباب بقدمه يغلقه، ثم قال وهو يبرّر البرد الذي لم يزل.

ـ كما ذكرت، التدفئة المركزية لا تعمل، لذا هلمي إلى المطبخ، فهو أدفأ غرفةٍ في المنزل.

وبعد أن وضع أغراضها على مقعد خشبي، وخلع سترته المبللة، تقدم نحوها، وقال: «اسمحي لي...».

ثم علق معطفها على المشجب وناولها منشفة: «من الأفضل أن تجففي شعرك، وإلا أصبت بالبرد».

وفيما هو يفرك شعره، أخذت آنا تجفف وجهها، لأن البرد القارس يبس خديها، وخدّر أذنيها، وصبغ أنفها بالأحمر المتورد. ثم أزالت الدبابيس من شعرها الأسود الطويل وراحت تراقبه وهو يحاول أن يضرم النار في المدفأة.

وقبل أن تنجذب عيناها إلى مظهر وجهه الجانبي، شدّ انتباهها خاتمٌ ذهبيٌ نفيس في إصبع يده الرابع، ومرةً أخرى، لمحت فيه شبهاً خاطفاً لدايفيد.

رفعت شعرها الرطب بكلتي يديها، ثم تركته ينسدل بحرية فوق عنقها، فسرت فيها قشعريرة لاتمت إلى البرد بصلة. ماذا تفعل هنا بحق الله؟ امرأةٌ خلّفتها العاصفة وحيدةً مع غريبٍ يقلق سكينة البال. عرفت أنها لا تملك أي خيارٍ إلا أن تستجمع قواها، وتقدم على أفضل ما يمكنها بانتظار انحسار العاصفة الثلجية.

ولكن، حتى لو حصل ذلك، فلن تستطيع أن تغادر المنزل حتى الصباح. وكانت فكرة المبيت في هذا المكان، وحدها، كفيلةً بأن تقض مضجعها، إن لم نقل أكثر.

رمقها بنظرةٍ خاطفة، ثم قال بسخرية: «لا داعي لهذا الهلع. فأنا لا أتحول إلى ذئب إلا عندما يصبح القمر بدراً».

أملت ألا يلحظ الشحوب الذي أحدثته كلماته في وجهها، خاصة حين تابع: «تعالي، ودعي حرارة النار تدفئك».

لم تنتظر آنا تكرار الدعوة، لا سيّما فالبرد قد تغلغل إلى عظامها. تقدمت حتى المدفأة الكبيرة، حيث الحطب يزداد اشتعالاً، ويبعث حرارةً تضفي على النفس راحةً.

وحين سحب لها كرسياً بيده اليمنى، شعرت بالخجل يجتاحها، فهي لم تعره اهتماماً طيلة هذه المدة، بل فكّرت في نفسها وحسب. فكيف نسيت أن مرفقه تلقى ضربةً عنيفة، وأنه يعاني الآن من ألمٍ مبرح؟

- أتريد مني أن أتفقد ذراعك؟ فإن كنت تملك صندوقاً للإسعافات الأولية، استعنت بمرهم يساعد على تهدئة. . .

قاطعها بنعومة: «أنا متأكدٌ من أنك ممرضةٌ ساحرة. لكن ما من ضرورةٍ لذلك، فلا شك في أنها ستعود إلى سابق عهدها في الصباح. أما الآن، فما رأيك في شرابٍ قبل أن أعدّ الطعام؟».

كان في آنا من الخوف والانفعال ما يمنعها من الأكل، ومع ذلك، ظل الجوع يحفر جوانب نفسها.

فما كان منها إلا أن عرضت عليه: «أتفضل أن أعده بنفسي؟».

أجابها بجفاف: «ليس طعامي بهذا السوء».

- لكن تفكيري كان منصباً على ذراعك.

- لا تقلقي. سأعد الطعام كله بيدٍ واحدة. بإمكانك أن تعدي الشاي، فذلك يتطلب عمل اليدين معاً.

لم تكن الأنوار ساطعةً جداً، وكثيراً ما كانت تومض ثم تخبو. فلا يبقى إلا لهب النار مسيطراً على المكان وعندما كان يحدث ذلك كانت آنا تتسمّر في مكانها وتحبس أنفاسها. وما إن تعود الأنوار ثانيةً، حتى كانت تطلق تنهيدة ارتياح، فينجلي ذلك الجو الحميم الذي فرضه لهب النيران عليهما.

وعادت إلى كرسيها، وفي يدها كوب من الشاي، ورجلاها ممددتان إزاء النار. ومن تحت أهدابها الطويلة السوداء، راحت تراقبه بخفاء، وهو يعدّ المكونات، ويسخّن المزيج فوق النار. كان يرتدي سترةً صوفية بلون القشدة، تعكس عرض صدره وكتفيه، أما شعره، فبدا بلون الذرة، مجعداً تسللت منه إلى جبينه خصلة أظهرته بمظهر صبي لطيف لم تألفه قط. ولكنها كانت متأكدة أنه لا ينتمي إلى ذلك الوصف في شيء. وإن كان من أمرٍ ما لتتذكره، فهو أنها أمام رجلٍ ناضج وخطير.

وسرعان ما اضمحل الارتعاش في داخلها، بفعل هذا الشراب الساخن

والدفء، فبدأت تسترخي، وتحاول أن تفكر في وضعها بمنطق وعقلانية.

ومع أنها لا تحبذ البقاء وحيدة برفقة جيدون ستراتج، إلا أن الأمر ليس بهذا السوء. فهي تنعم بالطعام والدفء وبسقفٍ يغطيها. ثم راحت تذكّر نفسها أنه رجلٌ ذو مبادىء وموضعُ ثقةٍ تماماً ولعله لم يقدم على معانقتها إلا بدافع عفوي، لا يعد جريمةً سيّما في عيد الميلاد. وعليها أيضاً أن تقر، بصدقٍ، أنها ما كانت لتعير العناق أي تفكير لو كان رجلاً آخر.

بدا لها مشروع قضاء الليلة برفقته مشروعاً مروعاً فعلاً. لكن، بدل أن تدع هذه الأفكار تسيطر عليها، يجب أن تحافظ على هدوئها ورباطة جاشها، أو على الأقل، أن تظهر على هذا النحو. فإن حاول، تحت أي ظرف من الظروف أن يتقرب منها، فستبعده عنها بكل ثبات. وعلى أي حال، لطالما عرفت بذلك بين أصحابها. ومع أن هذا الرجل لا يقبل بالرفض جواباً. إلا أنها لا تتصوره يفرض نفسه على أي امرأة. بل هو لا يحتاج إلى ذلك. فرجلٌ مثله لا يقوم إلا بدفع النساء المتعطشات لحبه عنه. واستغربت أنه لم يتزوج بعد، فمن يدري؟ قد يكون من النوع الذي يتّبع مقولة: «أحبهّن واهجرهن». أو تراه يفضّل أن يتخذ له عشيقةً؟ فهي لا تتصور رجلاً بمثل هالته وجاذبيته يعيش كالراهب.

لكن، لو صح أنه يعيش علاقةً طويلة الأمد، فلماذا عاد إلى بيته وحيداً؟ إلا إن كانت حبيبته تنوي اللحاق به...

ـ أفضل ما في الوجبة السريعة أنها لا تستغرق وقتاً وطويلاً.

قطع عليها صوت جيدون أفكارها، فأجفلت ورفعت رأسها، لتجده واقفاً بقربها. كان يمسك بصينية صغيرة، فيها منديل وطبق مليء بالدجاج والقريدس والخضروات، وزوجٌ من العيدان.

اتّخذ المقعد المقابل لها أمام المدفأة ثم أضاف بابتسامةٍ عريضةٍ:

ـ قد لا تعد الوجبة السريعة طبقاً مناسباً، لكنها لذيذةٌ إذا التهمتها وهي

حارة.

ولم تنتظر أي إلحاح آخر، بل فعلت ما أمر به لأن الجوع هَدها فعلاً.

بقيا لمدةٍ يأكلان، وقد لفهما الصمت. وراحت تركزّ على طعامها، وقد فوجئت بطعمه اللذيذ، وما إن أنهت طبقها حتى رفعت رأسها، وتوجهت إليه بالحديث: «شكراً جزيلاً، كان ذلك لذيذاً».

ـ غداً، سنلتزم بطبق ديك الحبش التقليدي في عيد الميلاد، من غير أن ننسى حشوته وزينته.

ثم أضاف بانتصار: «وقد تذكّرت أن أبتاع صلصة التوت البري».

حين أجابته بالصمت، رفع حاجباً وقال لها: «ألا تظنين أنك تدينين لي بتهنئة العيد؟».

ـ أتوقع أن أرحل غداً في الصباح.

بدا صوتها حاداً، وكأن الكلمات أفلتت منها من دون وعي.

ـ أصغي إلى الريح وهي تصفرّ، وإلى الثلج وهو يطرق النوافذ، فأنا لا أتذكّر عاصفةً كهذه منذ طفولتي، حين غمرنا الثلج لعدة أيام. لكن، لا تقلقي إن تكرّرت الحادثة، فنحن نملك من الطعام والشراب والحطب ما يكفينا فالحظ حالفنا.

وفجأة، أطلق ضحكةً خافتة. كان صوته عميقاً جذاباً، ولولا شعورها بالتوتر لشاركته الضحك لكنها احتجّت وهي تكبت غضبها: «لا أرى ما يثير الضحك فعلاً!».

ـ هذا لأنك لا تجلسين مكاني. ليتك رأيت وجهك وحسب!

كانت عيناها الخضراوان تقدحان شرراً، وكادت تصرخ: «الأمر يناسبك فعلاً، فأنت في بيتك، حيث ترغب في أن تكون».

ـ أتفضلين أن تبقي في سريرك وحيدةً إذاً؟ أو أن تتطفلي على عائلة لا ترغب في وجودك حقاً؟

تصاعدت النيران إلى وجنتي آنا، وتمنت لو أنها لم تتفوه بكلمة

أمامه. ومع أنها ليست عادة من هذا النوع، إلا أن شدة التوتر دفعتها للثرثرة. بعد برهة، قال: «أنا آسف، لم يكن هذا لطفاً مني».

احست بكلامه يلسعها ثم ردّت: «لا، ولكن ذلك لا يمنع أنه الحقيقة».

- أشك في ذلك، فأنا سعيد في ما آلت إليه الأمور.

وحين أخرسها الارتباك، استطرد: «بما أنك ولدت وترعرعت هنا، فلا بد أن أصدقاءك المقربين كثيرون هنا».

- بعد أن تركت المدرسة، رحلت لألتحق بالجامعة لثلاث سنوات، ثم عشت في لندن لسنتين، ففقدت الصلة بأغلبية أصدقائي.

- إذاً، لا أفهم لماذا تتوقين إلى الرحيل من هنا. . أعلم أن المانور يفتقر إلى لمسةٍ بشرية، لكني أملت أن تملكي من الشجاعة ما يكفي لتعتبري عزلتك هنا، نوعاً من المغامرة الممتعة.

هذا ما كانت ستفعله لو كانت برفقة أي رجلٍ آخر، لكنها لا تستطيع أن تبوح له بذلك.

ومن بين أهدابه الطويلة الساحرة، تألقت عيناه بعطفٍ ساخر: «لكن، أعتقد أن الوضع مثير للأعصاب، خاصة حين تواظب الأنوار على الانطفاء».

وكأنه تنبأ بذلك، فما إن أنهى كلامه حتى انطفأت الأنوار وعادت تومض مجدداً.

- وها أنت تقفين وحيدةً في الظلام مع رجل لا تعرفين عنه شيئاً. رجل قد يكون أياً كان أو يخفي أي سر.

فابتسمت وهي تدرك جيداً أنه يتلاعب بها: «لا أشعر بهذا القدر من السوء. فعلى أي حال، أعرف أنك نجل السير آين، وأنك المالك الجديد لهارتينغتون مانور».

- حسناً، بما أنك الآن متأكدة من أنني لا أشكل تهديداً.

وأفلتت منها الكلمات قبل أن تستطيع منعها: «لم أقل هذا».

ومضت العينان الخضراوان بالضحك، ثم استرق النظر إلى نبتة الهدال المعلقة فوق الباب وهي نبتةٌ تعلق لجلب الحظ وقال: «آه! لعله يجدر بي أن أحرق هذه النبتة».

كان جلياً أنه لاحظ ردة فعلها على عناقه، فهو من الخبرة، بحيث يستحيل عليه ألا يلاحظ ذلك. فتوردت وجنتاها غضباً وقالت: «لا أظن أنه من الضروري حرقها».

- أتعنين أنه لا يجدر بي استخدامها لأغراضٍ معينة؟

ثم تنهد بعمق: «يا للأسف، فهو موسم الأعياد. لكن إن كان هذا يريحك ويسعدك سأفعل. والآن، أترغبين في الفاكهة، أم الجبنة، أم كعكة الميلاد؟».

فقالت وهي تتكلف الجد: «لا شكراً».

- إذاً سأعد القهوة.

وفيما هو يملأ إبريق القهوة، ويرتب السكر والقشدة والفناجين الصينية الفاخرة، راحت تفكر في حديثهما.

بطريقةٍ غريبة، أدت صراحتهما إلى تخفيف حدة التوتر، وخلقت جواً أكثر وداً، فقد أوحت لها تصرفاته أن المشكلة، مشكلتها هي، وهي تدرك منذ البداية أن ردة فعلها، وحدها، هي التي صعبّت الأمور.

- أتسمحين؟

ورفعت إليه ناظريها، ولمّا فهمت قصده، أدنت الطاولة الصغيرة منه.

فسألها: «كيف تفضلين قهوتك؟».

- مع قليلٍ من القشدة ومن دون سكر إذا سمحت.

ولاحظتَ أنه يشرب قهوته مرةً من دون قشدة ولا سكر. وفيما هما يرتشفان القهوة، جلسا يتأملان اللهب المتصاعد، ويستمعان إلى الثلج وهو يتساقط.

أصبح الصمت بينهما سكوناً عفوياً، يكاد يكون مؤنساً، وأضحى مشروع قضاء المساء برفقته بعيداً عن الرهبة تقريباً.

حين فرغ فنجانيهما، سألها بمرح: «والآن ماذا نفعل بانتظار موعد النوم؟».

ـ ربما يجدر بي أن أبدأ بغسل الأطباق.

فهز رأسه: «سوف ندير غسالة الأطباق ما إن يسمح التيار الكهربائي بذلك. لقد عنيت ماذا نفعل لنروّح عن أنفسنا؟».

ـ يمكننا أن نشاهد برامج التلفاز.

ـ لكن غرفة الجلوس باردةً كالثلج، ولا أظن أن المولد سيصمد لو شغّلناه.

أجابت آنا: «لا اهتم كثيراً بالتلفاز، فلطالما فضلت قراءة الكتب».

ـ أوافقك الرأي. وإذا كنت ترغبين في الكتب، ففي المكتبة ما يسدّ حاجتك. وعدا عن ذلك، فقد ملأ والدي مكتبته بمجموعةٍ من الطبعات الأولى.

ـ أحقاً؟

وأضاف جيدون بهدوء: «ومع أنني لا أفهم كثيراً في هذا الموضوع، إلا أنني أشاركه الاهتمام فيه. فإذا شئت، أصطحبك لرؤيتها بكل سرور».

ومع أنه عرض عليها الأمر من باب اللياقة إلا أنها لم تقوَ على كتم رغبتها الشديدة: «شكراً، أودّ ذلك فعلاً».

ـ تتطلب مراجعة هذه الفهارس وقتاً طويلاً، ولهذا أصبحت ماري موريسون سكرتيرته.

علقت آنا: «لم أعرف أن والدك يجمع هذه المجموعات».

ولبرهة، لاحت على وجهه نظرةٌ غاضبة، وكأنه لا يصدقها، وما لبثت أن اختفت كما ظهرت.

رد بهدوء: «أنت تذهلينني. فلطالما اعتقدت أن الجميع يعرفون

ذلك، أو على الأقل، كل من عرفه جيداً».

ـ لكنني قلت لك مسبقاً إنني لم أعرفه شخصياً، بل سمعت عنه وحسب.

وأصر جيدون: «لا فرق.. بما أنه كان ينافسك في السوق نفسها، فلا بد أنك سمعت باسمه».

هزت رأسها نفياً، وهي تتساءل لماذا تهمه هذه المسألة بهذا الشكل.

ـ ليس بالضرورة. عليك أن تعرف أنه إذا ما عُرف أن جامعاً غنياً مهتمٌ بشراء تحفةٍ ما، فإن سعرها سيرتفع أضعافاً، لذلك يفضل بعضهم أن يفوّض وكيلاً بدل أن ينخرط في عملية الشراء شخصياً.

وما لبث أن هز كتفيه بلا مبالاةً وأضاف: «أظن أن هذا منطقي فعملية الشراء والبيع تبقى مهنةً، مهما تغيرت نوعية السلعة».

وسرّت لأنه بدا أخيراً مقتنعاً بكلامها. لكن الغموض ما زال يسدل ستاره عليهما. فلماذا لم يصدقها في البداية؟ وما السبب الذي قد يدفعها للكذب بشأن مسألةٍ كهذه؟

***

٣ ـ شبح هارتينغتون مانور

فجأةً، انزلقت حطبةٌ إلى جانب الموقد، لترسل وابلاً من الشرارات المتألقة. فقرفص واستخدم ملقطاً كبيراً ليعيدها إلى مكانها.

وما إن وقف من جديد حتى منحها ابتسامةً جانبية. فاضطربت أنفاسها وتسارع نبضها: «والآن، بعد أن صُرفنا عن الحديث، هلاّ عدنا إلى موضوعنا؟».

تشتتت أفكارها، وأجابته بغموض: «موضوعنا؟».

ـ ألا تذكرين؟ كنا نحاول أن تقررّ كيف نستمتع بسهرتنا. وبعدما صرفنا النظر عن برامج التلفاز، لم يبق أمامنا إلا خياران.

ـ خياران؟

ورمق نبتة الهدّال بنظرةٍ جانبية، ثم راح يراقب التورد في خدّيها، بمرح لم يحاول أن يخفيه.

قصرت أسنانها وهي تجاهد لتحافظ على هدوئها ما أمكنها: «أتملك أوراقاً للعب؟ أو ربّما مجموعة شطرنج؟».

ـ كان ذلك في ما مضى. أما اليوم، فلست أملك أدنى فكرة إن كانت موجودة.

وغمرت الكآبة وجهه فيما هو يتابع: «لم يكن أبي يستمتع باللعب إلاّ مع النساء، بل بالأحرى مع مجموعة من النساء، لا يتجاوز عمر الواحدة

منهن عمر ابنته».

ثم علّق وقد لمح التبدل في تعابير وجهها: «تبدين دهشة».

ـ بالفعل.

فلطالما سلّمت جدلاً أن السير آين مثال الأرستقراطي الفاضل المحترم. رمقتها العينان الخضراوان وكأنهما سهامٌ جارحة: «إذاً، لم تعرفي قط؟».

فهزت رأسها وأجابته: «لا».

ـ أنا من يندهش الآن. فمع أنه حاول جاهداً أن يتكتّم على الأمر، لكن الأخبار تتسرب سريعاً، لا سيما في بلدةٍ صغيرة مثل رمينغتون.

فهزت رأسها مجدداً: «لم أسمع قط بكلمةٍ عن هذا الموضوع».

فهزّ جيدون كتفيه استهجاناً: «ماذا رأيت من هارتينغتون مانور؟».

فأجابت: «الرواق والمطبخ والمكتبة».

ـ ألم تشاهدي بقية الجناح أو القسم القديم؟

ـ لا بل لم أكن أعلم بوجود قسم قديم.

فردّ بتلذذ: «إنه مكانٌ مروّعٌ للغاية، فيه ممراتٌ منزلقة وسراديب سرية. سأرافقك في جولةٍ إذا شئتِ. فهذا أفضل ما نقوم به في ليلةٍ ليلاء من ميلادٍ مثلج».

وألفت آنا نفسها تتساءل هل يحاول التلاعب بأعصابها، أم تراه قرأ في صغره العديد من المغامرات القصصية؟

ولعله اكتشف أفكارها وهو يقرأ تعابير وجهها، فقد منحها ابتسامةً عريضةً وأضاف: «إذاً، هيا نجلس حول النار ونقصّ حكايات واقعية عن الأشباح».

فأردفت بانتباه: «أخشى أنني لا أعرف أيةَ قصةٍ حقيقية عن الأشباح».

ـ ألم تمرّي بتجربةٍ شخصية؟ أتعنين أنك لم تقابلي شبحاً من قبل؟

ـ ليس على حدّ علمي. لكنّ ذلك لا يعدّ مفاجئاً بالنظرِ إلى مكان

سكني. فأنت لا تتوقع من أي شبحٍ يحترم نفسه أن يتكلّف ويسكن كوخاً. . . صغيراً بثلاث غرف!

ـ نعم، فليس ذلك من شيم الأشباح. لكن منزلاً بهذا الحجم. . .

ثم توقّف وهو يترقب سؤالها.

ـ أتعني أن شبحاً حقيقياً يسكن هارتينغتون مانور؟

فقطب بانزعاج: «أرى أنك لا تنظرين إلى هذه المسألة بعين الجدّ».

ـ أيجدر بي ذلك؟

ـ بالطبع، فلا يمكن أن نغضب السير روجر.

ـ السير روجر؟

ـ السير روجر سترانج. لكني سأخبرك عنه لاحقاً. والآن، هل تلعبين؟

فأجابته بشكٍ: «أظن ذلك».

كان في تصرفاته ما هو غامض وفي عينيه وميض دفع الريبة إلى قلبها.

ـ إذاً، فلنستعدّ.

ثم انتصب على قدميه وتقدم ليساعدها على النهوض. فما كان منها إلا تجاهلته، وقامت وحدها بإذعان. ثم علّق: «لا شك في أن المكان باردٌ، فلنرتدِ معطفينا».

تناول معطف آنا لتدس فيه ذراعيها وتلبسه. وحين ارتدى معطفه قال: «سنحتاج إلى شمعةٍ وأعواد كبريت».

فسألته وهي تفكّر في نواياه: «لكن الأنوار لا شك تعمل؟».

ـ نعم، إن تحمّل المولّد ذلك، لكن البيت بأكمله غير مجهز بها. لذا، سنحتاج إلى شمعةٍ لاحقاً.

حاولت أن تبدو على قدرٍ من العملية وسألته: «أليس من الحكمة أن نذهب في النهار؟».

ـ ماذا؟ ونقضي على المتعة؟

ـ أظن أنك تحاول إخافتي.

وبدل أن ينفي كلامها، عاجلها بالسؤال: «وهل نجحت في ذلك؟».

فردّت بحزم: «لا».

جمع أعواد الثقاب ودسها في جيبه، وفيما هي تراقبه بريبة، توجه إلى الخزانة وأخرج شمعداناً مزيناً بأناقة. ثم تقدم نحوها وسألها بأدب: «أتمانعين لو حملتِه لبرهة؟».

وما إن تناولته حتى تفاجأت بأنه ثقيلٌ جداً.

أما هو فتقدمها وهتف: «والآن، هلاّ ذهبنا إلى القبو؟».

ولجا باباً صغيراً في نهاية الرواق ثم نزلا درجات حجرية مكسوة بالسجاد وبعد ذلك وصلا إلى ممر حجري واسع يتفرع إلى سلسلةٍ من العنابر والحجرات.

تقدم جيدون إلى أحد الأبواب، وفتحه فظهرت غرفةٌ فسيحةٌ مرصوفة.

ـ هنا، كان المطبخ. أما المطبخ الحالي فكان قاعةً للخدم.

ألقت آنا نظرةً على الداخل، وإذا بها تبصر مغاسل حجريةً وطاولةً من خشب السنديان، وخزائن شديدة الارتفاع. وفي وسط الموقد الكبير رأت سفوداً حديدياً قديماً يتسع لشواء ثور بكامله.

كان الجو من البرد بحيث تحولت أنفاسها إلى بخارٍ في الهواء. فلم تأسف البتة حين أطفأ التيار الكهربائي إيذاناً بمغادرة الغرفة.

وفي نهاية الممر، صادفتها مجموعةٌ أخرى من الدرجات تؤدي إلى القسم الرئيسي من المكان، فاختلست النظر إلى الغرف المختلفة فيه، ولاحظت أنها فرشت بعناية، وقد كُسيت جدرانها بورقٍ جميل، وزيّن سقفها بزخرفةٍ منمقة.

ـ كما ترين، زُودت هذه الغرف بمستلزماتٍ تماشي العصر حداثةً، من غير أن تقضي على روحها. إنها مريحة بالفعل.

وتابع بنعومةٍ: «يؤدي هذا المدخل إلى الجناح الشرقي الذي لم يقطن فيه أحد منذ زمنٍ، لكنه بالتأكيد الأكثر إثارة للاهتمام. إنما ليس فيه غاز أو كهرباء، ولهذا علينا أن نضيء الشمعة».

واردف: «هلاّ تفضّلت وأخرجت علبة الثقاب من جيبي الأيمن».

فامتثلت لطلبه وهي تستجمع قواها. ومن النظرة الساخرة التي كان يرمقها بها، أحست أنه يدرك تماماً شدة انزعاجها. وفيما هي تتقدم نحوه، غمرها الدفء المنبعث من جسمه. وما إن عثرت على العلبة أخيراً، حتى أشعلت له الشمعة التي في يده، واضطربت أشد الاضطراب حين شعرت بيدها ترتعش.

سألها بعفوية: «أتعانين سوءاً؟».

فأسرعت تطفىء العود قبل أن يحرق أصابعها، وأعادت علبة الثقاب إلى جيبه وهي تجيب: «أشعر بالبرد».

ولم تكن تكذب تماماً في ذلك. أمّا هو فرفع الشمعة عالياً، فانعكست ظلالاً متموجةً قاتمةً على الجدران، ثم أنار لها الطريق عبر الدرجات الحجرية والجناح الشرقي.

بدا لها أنهما يواظبان على تغيير اتجاههما. فيصعدان درجتين تارةً، وينزلان ثلاثاً تارةً أخرى. وتراءى لها أن عدد الممرات لا يحصى. وفيما كان بعضها يبدو مسدوداً، كان بعضها الآخر يؤدي إلى غرفٍ صغيرة فارغة، وفيها نوافذ بقضبانٍ حديدية، تبدو منها العاصفة وهي تتابع عويلها.

ـ لا أدري كيف تتلمس طريقك.

بدا صوت آنا صغيراً، بل ضائعاً في العتمة التي تحيط بالمكان.

ـ كنت ألعب وأختيّ هنا في صغري.

كان الصدى يرجّع وقع خطواتهما في الفراغ. فنزلا درجاتٍ قديمة مصنوعة من خشب السنديان حتى وصلا إلى ممرٍ يؤدي إلى حجرةٍ خلفية.

وتفرعت هذه إلى غرفٍ أخرى، يفضي كل بابٍ منها إلى آخر. وأخيراً، بلغا بهواً معمداً بالخشب القاتم من الأرض وحتى السقف، حفرت فيه الأزهار والفواكه والكروم المتدلية. ومع أنه خلا من النوافذ، إلا أنها استطاعت أن تميّز صفير الريح وعويلها.

وهنا تمتم جيدون بنعومة: «ها قد بلغنا الجزء الأكثر إثارة للاهتمام».

وما إن اختلست نظرةً سريعة إلى وجهه حتى علمت أنه ما دفعها لتلك النزهة إلا بهدف الوصول إلى هذا المكان، وسرعان ما أكدت كلماته التالية شكّها.

ـ هذا هو البهو المسكون ومقر السير روجر.

وبنبرة كئيبة، تابع: «يا لبشاعة الطريقة التي لاقى فيها حتفه هنا! لكنه ما زال يظهر في ذلك المكان أحياناً».

ـ وكيف لاقى حتفه؟

وما إن أفلتت الكلمات من آنا حتى تمنت لو أنها احتفظت بالسؤال. صحيح أنها غير خائفة لأنها لا تؤمن بالأشباح، لكن الظلام المحيط بالمكان، والقشعريرة التي يبعثها فيها، إضافةً إلى شعلة الشمعة المرتعشة، جعل الجوّ مخيفاً جداً.

أجابها جيدون: «قبل أن أخبرك، فلأزودك بخلفية الحكاية».

ومن خلال النور الشحيح، لم تتنسم في وميض عينيه أو حركات يده مايريحها البتة. فابتلعت ريقها بصعوبة وراحت تنتظر.

فبدأ الرواية: «خلال الحرب الأهلية، كان هنري سترانج، مالك هارتينغتون مانور، يزعم أنه يؤيد تيار «الراوند هيدس»، ويخفي معتقده بالملكية، بعكس ابن عمه روجر سترانج الذي كان يفصح جهارةً عن إيمانه بالملكية. وفي إحدى ليالي الميلاد، وفي ساعةٍ متأخرة، أصيب بجرحٍ، وتعرّض لملاحقةٍ من أعوانه، فما كان منه إلا أن احتمى في المانور. وبسبب الآثار التي خلّفها الثلج، تلقى خادمٌ أمراً بأن يركب جواد السير

روجر، فيبتعد به عن المنزل. ولسوء الحظ، فشلت الحيلة. وفي منتصف الليل، اقتحم رجال كروموبل المنزل وهم يطالبون بالدخول.

«وقبل أن يسمح لهم السير هنري بذلك، طلب من زوجته الشابة، آن، أن تخفي السير روجر حتى رحيلهم. فاستعانت بشمعةٍ وقادته عبر هذا البهو ثم خبأته في مساحة صغيرة خلف اللوح الثقيل، وهي تعده أن تحرره ما إن يصبح المكان آمناً. وحين لم يثمر بحث رجال كروموبل، قاموا بسجن هنري وأنشؤوا مركزهم الرئيسي هنا. ولأن آن كانت تخاف على حياة زوجها، لم تستطع أن تأتي حركةً، أما هم فلم يغادروا إلا بعد انقضاء شهر تقريباً...

ـ أتعني أن الرجل المسكين بقي مسجوناً هنا حتى مات جوعاً؟

ـ بل مات ظمأً أو بسبب نزيفٍ حاد.

ارتعدت آنا: «ما أفظع هذا! وأنت تقول إنه مازال يظهر؟».

ـ في ظروف معينةٍ فقط.

كان في صوته نبرةً غريبة، فعلّقت آنا والشك يساورها: «أتعني أنه يظهر في ليلة الميلاد؟».

ـ بل الشروط أكثر من ذلك. والليلة، توافقت هذه الشروط تماماً. تقول الحكاية إنه إذا ما سارت امرأةٌ شابة وحدها على طول البهو، في ليلةٍ مثلجة من ليالي الميلاد، وفي يدها شمعةٌ مضاءة، قاصدة القبو المزعوم دون أن تنظر إلى الخلف فإن السير روجر سيظهر!

بلغ شك آنا ذروته، وتذمرت: «أراهن على ذلك! أخبرني، أكانت آن، زوجة هنري، بنفس طولي وبنيتي تقريباً؟ ألها شعري الأسود وعيناي الخضراوان ذاتهما؟».

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ سمّها حاسةً سادسة.

ـ أتظنين أنني أتلاعب بك؟

ـ بل أنا متأكدة من ذلك.

وباقتناع كبير، تابعت: «على أي حال، أنا لا أؤمن بالأشباح».

ـ إذا صحّ ذلك، فلمَ أنت خائفة؟

ـ لست خائفة.

ـ إذن، لمَ لا نختبر هذا؟ كل ما عليك القيام به هو التوغل إلى نهاية البهو فيما أنتظرك هنا. أذكر أن أختي الصغرى قامت بالمهمة وهي في الحادية عشرة من عمرها.

ـ إذاً، لم تخترع الحكاية برمتها؟

ـ لا، طبعاً. لعلي بالغت فيها قليلاً. لكنها مؤرخة وفقاً للتسلسل الزمني في أرشيف العائلة. فإن كنت ترغبين في رؤية شبحٍ حقيقيٍ...

ـ لست متأكدة أنني أرغب في ذلك.

راح يحثها: «هيّا، قومي بمحاولة».

وفيما كانت مترددة، شرع يسألها بسخرية: «أين روح المغامرة فيكِ؟».

رفضت أن تقرّ أنها فقدت هذا الحس لسببٍ لا تدري ما هو، بل احتجّت بضعف: «تبدو لي الحكاية سخيفةً قليلاً».

ـ حسناً، إذا كنتِ لا تملكين الشجاعة...

لم تشأ آنا أن تعطيه مراده. لكن لمَ تهتم برأيه على أيةِ حال؟ ومع ذلك، فقد أخذت نفساً عميقاً ووافقت: «حسناً، هات الشمعة».

فناولها الشمعدان الحديدي وهو يتساءل: «أمتأكدةٌ أنتِ من أنك تقوين على ذلك؟».

ـ إذا كنت تقوى على الانتظار هنا في الظلام.

حيّاها بسخرية: «غلبتني! لكن لا تنسي ألا تنظري إلى الوراء».

وراحت تردد على نفسها أن القصة بأكملها لعبةٌ سخيفة، تجري أحداثها في ليلة الميلاد، كلعبة ألالغاز ربما. ثم تقدمت باتجاه البهو،

وسمعت من خلفها صريراً خفيفاً وكأن جيدون تعمّد أن يتبعها فوق اللوح الخشبي الأسود. لكنها أبقت رأسها مرتفعاً وتابعت المسير ببطء. وأحست وكأن نور الشمعدان أزاح نهراً من العتمة الحالكة أمامها، ليعود ويبتلعها مجدداً من الخلف. أرادت بشدة أن تنظر إلى الوراء، وفيما هذه الرغبة تزداد سيطرةً، حاولت أن تختلس نظرةً من فوق كتفها. لكنها لم تبصر إلا ظلاماً بظلام.

فما كان منها إلا أن تنهدت وتابعت سيرها.

كانت قد بلغت نهاية البهو تقريباً حين أحست فجأةً، ومن دون سابق إنذار، بتيارٍ جليدي أطفأ شعلة الشمعة. فتسمرت مكانها، وإذا بيدٍ باردة تخرج من الظلام وتنقض عليها. كان تأثير الصدمة من القوة بحيث توقف قلبها عن الخفقان وانحبست أنفاسها لبرهة، فوقع الشمعدان من أصابعها المتوترة، وارتطم بالأرض محدثاً صوتاً مكتوماً، ثم تدحرج بعيداً. أما جسدها، فبقي لثانيةٍ أو اثنتين، مجمداً، فيما بدأ ذهنها يعمل وكأن الحقيقة انقشعت أمامها.

أخذت نفساً عميقاً وصرخت بغضب: «اللعنة عليك يا جيدون سترانج! لقد أخفتني حتى كدت أُقتل!».

سمعته يقهقه بنعومةٍ ورضا في الظلام، ثم ظهر صوته: «بدوت حذرةً جداً، فظننتك عرفت أنني وراءك».

أجابت: «لا... لكنني سعيدة لأن قلبي لا يعاني من مشكلة».

فرد بصوتٍ صادرٍ من القلب: «في هذه الحال، أنا أيضاً. فرغم أنني...».

وتوقف فجأةً قبل أن يتابع: «رغم أنني أحبّ المزاح، إلا أن ضميري لا يتحمل موتك».

ومن طيات كلامه، أحست أنه تعمد أن يغيّر جملته في وسط الحديث.

في هذا الوقت، كانت الريح الباردة التي أطفأت الشمعة تتابع هبوبها، فتمتمت وأسنانها تصطك: «والآن، بعد أن تمتعت بمزاحك، هلاّ عدنا أدراجنا؟».

أجابها بهدوء وثقة: «بالطبع. يمكنني القول إنني أستطيع تلمس طريقي في الظلام عند الحاجة، لكن من الأفضل أن أعثر على الشمعة».

ترك يدها، وراح يتلمس الأرض بحثاً عن ضالته.

ـ ها هي أخيراً!

وبعد برهة، أشعل عود ثقابٍ فعادت الشمعة إلى الحياة. ثم رفع النور إلى مستوى وجهه، فبدا وكأنه يحمل مزايا خيالية لقناعٍ في عيد البربارة. وسرعان ما تحول انتباهها إلى ثقبٍ في الحائط تتسلل منه الريح.

ـ من الأفضل أن أغلق هذا.

وما إن أتم كلامه حتى ضغط على إحدى الزهرات المحفورة في الخشب، فتحرك اللوح بخفة، ووقف في وجه الريح سداً منيعاً.

وتراءى لأنا أن طريق العودة مسدودٌ، لكن سرعان ما ظهر بابٌ صغير، من خشب السنديان القاتم، لم تلاحظه من قبل. ونظراً للظروف التي تحيط بها، لم تستغرب ذلك قط.

فجأة اقترح جيدون عليها: «أتريدين أن أمسك يدك؟».

ومع أنها لم تشعر بنبرة السخرية في صوته، إلا أنها أجابته باختصار: «أشكرك، لكن لا داعي».

ـ إذاً، ابقي بجانبي. فما زال ينتظرنا سلّمٌ لولبيّ درجاته تكاد تنهار.

وبعد ما وصلا إلى الدفء الذي أنعمت به عليهما حرارة المطبخ، شعرت بمزيجٍ من البرد ومضاعفات ما بعد الصدمة. رغم كل محاولتها، راحت فرائصها ترتعد بشدة. وما لبث جيدون أن ساعدها على خلع معطفها. وحين شعر بالارتجاف يسري فيها، أجلسها على كرسيّ أمام النار. فاضطربت لما شعرت به من ضعفٍ، ثم تمتمت بصوتٍ مخنوقٍ:

«أنا آسفة».

ما كان منه إلا أن أضاف المزيد من الحطب إلى النار. ولمّا رآها تمدّ رجليها باتجاه النار، سألها: «أرجلاكِ باردتان؟».

أومأت إيجاباً.

ـ إذن، فلنخلع عنك هذا.

وانحنى نحوها، فخلع عنها حذاءً من الجلد ورماه جانباً.

ـ أشكرك.

ثم حاولت أن تبدو مرحة، فأردفت: «وبعد كل ما مررت به، لم أتمكن من رؤية شبحٍ حتى الآن».

حدّق في وجهها الشاحب، ثم قال بحدة: «تبدين، أنت نفسك، كشبح».

ثم تحرك بعيداً، ليعود بعد برهة وكوب من الشاي في يده.

ـ سأعدّ القهوة. لكن اشربي الشاي أولاً.

احتجّت: «لكني لا أريد».

ـ ليس ذلك ضرورياً، اشربيه وحسب.

ثم أصرّ وهو يقف فوقها: «هيا اشربيه إنه مفيدٌ في حالات الصدمة».

فرفعت الكوب إلى شفتيها، لكن يدها كانت من الارتجاف بحيث استحال عليها حمله، فاضطرت إلى استخدام يديها الاثنتين.

بعدما أحتست بعض الشاي بدأت الألوان تغمر وجهها مجدّداً، هتف: «هذا أفضل! والآن ارتشفي بقية الشراب فيما أعد القهوة».

فامتثلت له، وراحت تشرب وهي تحدق في النار وتفكّر في الأحداث التي مرّت بها. فمع أن جيدون تعمد أن يخيفها، فلا يمكنها أن تجزم أنه فعل ذلك بهدف المزاح كما أوهمها.

أهو الغضب؟ أم البغض؟ أم رغبةٌ في الانتقام؟

شعرت بتفاهة هذه الأسباب ومأساويتها. فلقد تقابلا للتو، ومع أنها

صدمته بالسيارة عن غير قصد، إلا أن ذلك لا يفسّر تلك المشاعر فيه...

ـ ها هي القهوة.

ووضع جيدون صينية القهوة على مسند القدمين: «القليل من القشدة، وبدون سكّر، أليس كذلك؟».

ـ إذا سمحت.

وبعد أن ناولها فنجانها، اتخّذ المقعد المقابل لها. ثم راحت عيناه تتجولان على وجهها بطريقةٍ ولدت الاحمرار على خدّيها.

ـ كنت تبدين غارقة في التفكير.

ـ كنت أتساءل لماذا تشعر بضرورة إخافتي.

رمقها بنظرةٍ لاذعة قبل أن يسألها: «ألا تصدقين أنها مجرّد دعابة سمجة؟».

أجابته بجرأة: «لا. أعرف أنه باستطاعتك أن تكون متحجّر القلب إذا شئت. لكني لم أصنفك لحظةً كرجلٍ بلا تفكير أو بلا رحمة».

توتّرت شفتاه لبرهة، وكأنها أصابت الهدف. ولكنه ما لبث أن تابع، وكأنه لم يقتنع تماماً: «وتقولين إنك لم تملكي أدنى فكرة عمّا كان ليحصل؟».

ـ أبداً.

تفرست في ملامحه الغامضة ملياً ومع ذلك لم تعرف إن كان يصدقها أم لا.

ـ عرفت أنك تحاول إخافتي طبعاً، لكن ظننت أن الأمر يقتصر على المسير في البهو فقط. أما حين خبت الشمعة وأمسكت بيدي، فقد كدت أموت.

أقرّ: «لم أخطط لهذا. كل ما نويته هو انتظارك حتى تتقدّمين قليلاً، ثم أنسحب من اللعبة، لكن حين حلّ الظلام الدامس، استغليت الفرصة».

فجأةً، انسدل شعرها على كتفيها، فأرجعت خصلةً حريرية سوداء

تسللت إلى جبينها، ثم قالت: «ما إن رأيت الثقب، حتى أدركت أن هناك ممراً سرياً. لكن، ما زلت لا أفهم من أين تدفق الهواء».

ـ يؤديّ نهاية البهو إلى الخارج. ومع أن البوابة الخارجية مزودة بمزلاج، إلا أنها ليست محكمة الإغلاق. وهذا يفسّر التيار الهوائي. لكنني لم آخذ بعين الاعتبار قوة الريح هذه المرة.

لا عجب أنهما كانا يسمعان عويل الريح طيلة الوقت. واستعادت تلك اللحظات الباعثة للتوتر في البهو، ثم قالت: «ما زلت لا أفهم أمراً آخر. فحين صرت في البهو، تركتك وحدك في الظلام، فكيف تمكنت من عبور الممر؟».

اعترف: «كنت أملك مشعلاً صغيراً في جيبي».

ـ فما حاجتك إذاً إلى الشمعة؟ لا، دعك من الإجابة عن هذا السؤال السخيف.

ظلّ وجهه على الغموض نفسه، فيما أجابها: «صدقيني، ما كنت لأحاول إخافتك على هذا النحو، لو لم أعلم أنك كنت مستعدةً نفسياً لهذا الأمر. وحتى أتبع خطواتك، اضطررت إلى السير على هذه الألواح، فأصدرت صريراً واضحاً. وكنت متأكداً من أنك سمعته».

ـ لقد سمعته، لكنني لم أدرك ماهيته في ذلك الوقت. ولو فعلت، لفكّرت بمنطق.

ـ لكنك كنت هادئة طيلة الوقت. فكثيراتٌ كنّ ليطلقن صرخاتٍ هستيرية.

وحين اختلست النظر إليه، لاحظت مسحةً من الاحترام، بل التقدير على وجهه.

ـ أخشى أنك لا تستطيع تصنيفي كشجاعة. ففي الثواني القليلة الأولى، كنت مصدومة تماماً. وحين أدركت لاحقاً من يمسك يدي، تملكني من الغضب ما حجب عني الخوف.

ـ وكيف عرفتني بهذه السرعة؟

ردّت بجفاف: «لم أتصور شبحاً بخاتمٍ ثمين. أما أنت فبلى. فقد لاحظته مسبقاً».

تمتم بنعومة: «آه!».

ثم مدّ يده إلى الابريق: «أمستعدةٌ للمزيد من القهوة؟».

ـ إذا سمحت.

بعد ذلك لفهما صمت لمدةٍ، صمت لم يقطعه إلا طقطقة الحطب في الموقد، وندف الثلج على النوافذ. ولكن حين رفعت وجهها، ألفت جيدون يتأملها بنظرةٍ عميقةٍ خطفت منها الشجاعة. ولم تنقضِ ثانيةٌ حتى اختفت ليحل محلها ذلك التعبير الساخر الذي تعرفه. وما لبثَ أن تنحنح، ثم مدّ يده إليها، وأمسك بيدها، وفي صوته لمسة ساخرة: «إن تقدمت الآن بأحرّ اعتذاراتي، فهل من فرصة لأظفر بالسماح؟».

فتلعثمت وقد تأثرت بقبضته اللطيفة على كفها: «نعم. . . طبعاً. . . مع أنه لا يجدر بك الاعتذار، فأنت لم تتسبب بأيّ أذى».

وما لبثت عيناه أن منحتاها ابتسامةً. وكشفت أهدابه الطويلة عن وميضٍ ذهبي يتراقص في عمق ذلك الاخضرار الصافي. ثم تناهى إليها صوته الناعم: «هذا كرمٌ منك، لا سيما في هذه الظروف».

كان يمسك بيدها. وحين أحست أنها تحدّق فيه كالمسحورة، سحبت يدها فوراً. ثم سارعت تبحث عن أي كلماتٍ تخفي فيها ردة فعلها إزاء جاذبيته العميقة.

ـ إذاً، فقصة الشبح وموت السير روجر من بنات أفكارك؟

نظر إليها وأجابها: «لا، ليست من بنات أفكاري. ومع أنني أشك في قصة الشبح قليلاً، إلا أن الأحداث الواقعية مدرجةٌ في وثائق».

ـ لكن إن كان من ممر سري يؤدي إلى الخارج، فلمَ لم يستخدمه؟

ـ الممر موجود اليوم، بخلاف الأمس. فبعد موت السير روجر

المأساوي، ولتفادي أحداثٍ مماثلة، قام السير هنري ببنائه. وتقول الرواية إن الرجال الذين شيدوه قُتلوا من دون إثارة بلبلة، لئلا يتسرب السر إلى أيٍّ كان.

وما إن أبصر ملامح وجهها، حتى هز كتفيه بخفةٍ وأردف: «كانت القسوة منتشرة في تلك الأيّام».

علقت قائلة: «إن كانت القصة صحيحة، وإن كان من أشباح، فأتوقع أن يكون للسير روجر رفاقٌ».

شعت أسنان جيدون البيضاء في ابتسامةٍ واسعة: «أنت محقةٌ في ذلك. ومن حسن الحظ أن الغرف في المنزل عديدة».

وفجأةً، ألفت نفسها تحدق فيه. فأحست بألف فراشةٍ تطير في داخلها، وتولّد فيها ارتعاشاً قوياً.

وحين أدركت أنه يراقبها من تحت أهدابه الطويلة، حولت نظرها بعيداً. وقبل أن تتمكن من التفوه بأي كلمة، انطفأت الأضواء مجدداً. لكن، هذه المرة، ظلّ النور منطفئاً.

علق جيدون: «يبدو أن المولد قد كفّ عن العمل تماماً. سألقي عليه نظرةً في الصّباح».

سألته آنا بقلق: «ألا تستطيع أن تفعل ذلك الآن؟».

وكشف لهب النار عن تألقٍ في عينيه.

ـ إنه موجودٌ في المنزل القديم الذي يستخدم اليوم كمرآب. وبغضّ النظر عن الجو القارس في الخارج، فإن إصلاح المولد يتطلب اليدين معاً.

أجابت بحدّة: «لا تحاول أن تتصنع ألم ذراعك. فأنت تستعمل يديك الاثنتين. لقد رأيتك تمسك الشمعدان في البهو بيديك الاثنتين».

فأقرّ بلطف: «هذا صحيحٌ تماماً. فقد عدت أستعمل ذراعيّ تدريجاً».

فما كان منها إلا أن أردفت: «إذاً، أنت تملك اليدين اللتين يتطلبهما إصلاح المولد».

ـ لكن بما أن الظلام دامس، فسأحتاج إلى يدٍ إضافية لأحمل المشعل.

ومع أنّ كلامه بدا منطقياً، إلا أنها تساءلت إن كان يبحث عن عذرٍ لئلا يصلح المولد.

ـ سأحمل المشعل بنفسي.

ـ لن أسمح لك بالخروج في هذا الجو الجليديّ مجدداً، لا سيّما بعد كل ما عانيته. على أيّ حال، أشك في أنني سأجد مشعلاً، لذا من الأفضل أن ننتظر حتى النهار.

أجابته باتهام: «لكنك قلت لي إنك تملك مشعلاً».

ـ لكنه مشعلٌ ضعيف يكفي لإنارة المساحات الصغيرة لا غير.

بدا لها أنه يملك جواباً عن كل سؤال. إذ أضاف بخفة: «لا داعي لهذا القلق. فما هو أكثر رومانسية من النوم على ضوء الشموع؟».

فكّرت آنا بغبطة في أن المشروع لا شك يلائمه، وأن ضوء الشموع بالتأكيد يخدم هدفه.

***

٤ ـ ذكريات حول النار

ولمّا شعر بقلقها، سألها ببراءة: «ألا توافقينني أنه رومانسي؟».

أجابته باختصار: «بل كنت أفكّر في كلمتي «غير لائق».

فتنهد: «أليس من المضحك كيف يصيب الرعب الإنسان ما إن تختفي وسائل الراحة العصرية؟».

ـ لست مرتعبة.

وما إن أفلتت منها الكلمات حتى أدركت أنها أكلت الطعم الذي أعدّه لها، فعضّت شفتها. أما هو، فتابع: «غياب التدفئة المركزية هو غير اللائق. ففي الغرف كلّ ما تتمنينه إلاّ الدفء».

ـ أليس فيها أي موقد؟

ـ للأسف، قام أبي بإزالة كل المداخن، لكنني أعتقد أنه يمكننا أن نشعل ناراً في الغرفة الأساسية. سأتحقق من الأمر، وأنا أحمل حقيبتك إلى الأعلى.

وما إن رحل، حتى تهالكت على الكرسي وأسندت رأسها إلى الوراء، وهي تشعر بالراحة والدفء. ثم أسدلت أهدابها وجلست تحدّق في النيران. وراحت تستمع إلى العاصفة وهي ما بين اليقظة والنوم.

لم تكن لتتصور أنها ستمضي الميلاد على هذا النحو. لكن منذ انفصالها عن دايڤيد، وعودتها إلى رمينغتون، وكل مخططاتها تذهب

أدراج الرياح. فبالنسبة إلى حياتها المهنية، فقد باءت بفشلٍ ذريع. فما بالك بحياتها الخاصة؟

كانت قد تفادت أي علاقاتٍ جديدة، وصدّت أي رجلٍ يحاول التودد إليها، ثم انكفأت على نفسها، تداوي جراحها وإحساسَ الخيانة الذي تمكّن منها. لكن، على مر الأشهر القليلة المنصرمة، كان تفكيرها بدايڤيد يقلّ تدريجياً، وشيئاً فشيئاً استعادت توازنها. غير أنها لم تنته من دايڤيد إلا لتقع على جيدون ستراتنج الذي صعقها شبهه المحير وقوة جاذبيته، إنما كان يملك من القوة والعمق والنضوج ما يميزه عن دايڤيد. ومع أن فمه يكشف عن حسٍّ مقلق، إلاّ أن فيه تمالكاً للنفس لا يضاهى. صحيحٌ أنها لا تعرفه، لكنها علمت تمام العلم، وبدافع غريزيّ منها، أن فيه تمالكاً للنفس لا يضاهى.

أغلقت عينيها وهي تطلق تنهيدة، فقد بدا لها وكأن القدر اختار أن يلعب معها لعبةً، فرصُ الفوز فيها ضئيلة جداً.

وفجأةً نبهتها حركةٌ ما، ففتحت عينيها.

كان جيدون واقفاً ونظراته ثابتة. وحالما قرأت وجهه، راح قلبها يخفق بأقصى سرعة. فرغم براءتها، لم تستطع إلا أن تعرف أن تلك النظرة... نظرة مشاعر فاضحة. لكن ما هي إلا لحظة حتى شهدت تغيّراً في ملامح وجهه فتلك المشاعر أصبحت تسلية باهتة. أكانت تلك النظرة خدعةً من هذا النور المتقطّع؟ أم أنها مجرّد بقايا حلم راودها؟ لا، فمع أنها تلاشت بغمضة عين، إلا أنها متأكدة أنها لم تتخيّلْ نظراته تلك أو تحلم بها.

فتلعثمت: «أظنّ... أظن أن النعاس غلبني».

ـ أهذا يعني أنك مستعدة للاستلقاء في السرير؟

ـ لا!

ما زالت تتذكّر تلك النظرة ولهذا السبب شاب صوتها رعبٌ مفرط.

وسعياً لاستعادة رباطة جأشها، هربت عيناها إلى الساعة: «ما زال الوقت مبكراً، فالساعة تشير إلى الحادية عشرة إلا ربعاً».

ـ حسناً إذا كنت لا تريدين النوم، فعلي أن أتأكد من دفء الغرفة هنا.

ثم انتقى ملقطاً كبيراً وحرّك الحطب، فتوهجت النار وأرسلت فيضاً من الشرارات.

وما إن استعاد مقعده حتى سأل: «متى تنامين عادةً؟».

كذبت: «ليس قبل الحادية عشرة. كثيراً ما أقرأ كتاباً قبل النوم. لكنها ليلة الميلاد على أي حال».

ـ إذاً، أنت تخططين لانتظار بابا نويل.

ـ في صغري كنت أرغب في انتظاره، لكن أهلي كانوا يرسلونني دوماً إلى النوم.

ـ كنت تؤمنين به إذن.

ـ نعم، حتى بلغت السادسة أو السابعة.

نظر إليها نظرة عميقة ثم قال: «حين تسدلين شعرك هكذا، ولا تضعين ماكياجاً، تبدين ابنة خمسة عشر ربيعاً. فكم عمرك الآن يا آنا؟».

ـ أربعةٌ وعشرون.

ـ أخبريني عن نفسك شيئاً آخر عدا إيمانك يوماً ببابا نويل والعمل أمينة مكتبة.

ها هي السخرية المهذبة تظهر في كلامه مجدداً!

ـ ما من أحداثٍ مهمة لتعرفها، فحياتي، للأسف، مملةٌ جداً.

ـ أما من حبيبٍ يشاركك كوخك؟

ـ لا، وهذا يناسبني جداً، لأنني لا أملك إلا فراشاً واحداً.

ابتسم جيدون ابتسامةً عريضةً: «ولكن هذا في حدّ ذاته قد يضفي لمسةً مثيرة».

ردّت بجفاف: «أشك في أنها الكلمة الصحيحة لا سيّما مع حمامٍ لا

يتجاوز طوله الأربع أقدام».

نظر إليها نظرة ماكرة: «لا أعرف. فقد أفكّر في ما هو أسوأ».

ـ كأن يكون المرء وحيداً في ليلة الميلاد؟

فتجاهل ملاحظتها وتابع: «لكن لك صديقاً على الأقل مقرباً، أو لنقل، مميزاً!».

تمنت لو أنه يصرف النظر عن الموضوع، وردّت باختصار: «لا».

ـ متى عدتِ إلى رمينغتون؟

ـ منذ سنةٍ تقريباً.

رفع حاجبه استغراباً: «لا شك في أن الرجال تواقون إلى ملء هذا الفراغ، إلا إن كانوا كلهم عميان».

للأسف لم تلتقِ إلا بواحدٍ منهم: كان بول قوياً، رزيناً وقد بلغ الأربعين منذ مدة، لكنّه لا يعد حبيباً.

ـ إذاً لماذا ليس لك حبيب؟

أحسّت بالانزعاج، وما كان منها إلا أن ردت بحدة: «لأنني لا أريد واحداً».

تمتم جيدون بنعومة: «آه.. لعلك تتصورين نفسك امرأةً فاتنة في قصةٍ خيالية، امرأة يتمناها كل رجل، لكنها لا ترغب في أحد منهم».

أزعجتها المقارنة، فاحتجّت: «أنت تصورني وكأنني امرأة، قاسية القلب».

ـ أولست كذلك؟

صرخت بغضب: «لا، لست كذلك».

وفيما هي تنكر كلامه، استعادت ذكرى أصدقائها أيام الدراسة، وهم يرددون العبارات نفسها. ومع أن معظمهم أغرم بها أو أعجب بحسنها إلا أنها لم تحب أحداً منهم قط. ونظراً لجمالها، فقد تلقّت الكثير من العروض، وعاشت مغامرةً رومانسية مرة أو اثنتين. ولكنها لم تكن ترغب

إلا في رفيق تشاركه همومها وأفراحها. وتضاعفت هذه الرغبة لا سيما حين انشغلت كليو بزوجها العتيد.

راقبها جيدون بندم ظاهري: «ها قد أغضبتك ثانيةً. لكن من الغريب ألا يكون لامرأةٍ في الرابعة والعشرين من عمرها أي صديق مميز».

قاطعته بحدة: «لم أقل إنه لم يكن لي أي صديق مميز. بل في الواقع، كانوا عديدين».

سألها بوقاحة ملطفة: «وهل كنت جادة بشأن هذه العلاقات؟».

أقرّت: «في الأساس، كانوا مجرد أصدقاء، لكنهم لم يعنوا لي شيئاً حتى...».

وتوقفت فجأةً. فآخر من تريد التحدث عنه هو دايفيد.

لكن جيدون لم يستسلم: «حتى ظهر شخصٌ مميزٌ في حياتك؟».

ـ نعم.

ـ إذاً أخبريني عن هذا الرجل المميز.

حين سكتت عن الكلام، جازف بتهكمه: «أراهن أنه طويلٌ، أسمرٌ ووسيم».

فصححت: «بل كان طويلاً، أشقر، ووسيماً».

ـ حين استقليت سيارتك في البداية، بدوت في حالة صدمة، وقلت إنني أذكرك بانسانٍ كنت تعرفينه. أكنت تعنينه؟

أجابت بضيق: «نعم».

ـ إذاً، فنحن نتشابه كثيراً؟

ـ لا، ليس تماماً، لكنني أتنسم أحياناً شبهاً سرعان ما يزول.

ـ أي نوع من الرجال كان؟

ـ فاتناً، حسن التربية، منمق الألفاظ وساحراً للغاية.

ـ وماذا يعمل؟

ـ كان يعمل لحساب شركة درومبيز، وهي شركة تعمل في المزادات

العلنية. لكنه كان يكره عمله، ويردد أنه ما كان ينبغي له أن يعمل.

ـ أهذا يعني أن عائلته غنية؟

ـ لا أعرف. لكنني أظن أن والديه متوفيان وأنه لم يبقَ له غيره من أسرته. فهو لم يذكر واحداً منها على الأقل.

خلا وجهه من أي تعبير، وما لبث أن تساءل بفضول: «ألم يذكر واحداً قط؟».

ـ أبداً.

ـ ألم يخبرك يوماً عن خلفيته؟ ألم يسأل عن ماضيك؟

حيّرها إلحاحه وأجابت: «لا، كنا نخرج دائماً في المساء إلى أماكن مختلفةٍ. ولم نكن نملك فرصاً للتكلم، وإذا ما فعلنا، فكنّا نتحدّث غالباً عن مشاريعه للمستقبل لا عن الماضي».

وهنا، استقام جيدون وحرّك الحطب من جديد. ولمّا كان يدير ظهره إليها، أحسّت بالتوتر في عضلات رقبته وكتفيه. وبعد برهةٍ عاد إلى مقعده، وعاجلها بالسؤال: «ثم ماذا جرى؟ هل مللتِ منه؟».

ـ لا.

لوى شفتيه: «أرفض أن أصدّق أنه هو من ملّ منك».

ردّت بانزعاج: «أفضّل ألا أتكلّم عن الموضوع».

فهي لم تخبر كليو حتى بالحقائق بكاملها، بل اكتفت بالقول إنها عرفت صديقاً وإنهما افترقا.

ـ إذا كنت متعلقةً به، فقد يفيدك أن تتكلمي عنه.

لكنها لم تكن متعلقةً به إلى هذا الحدّ الآن. وما إن راودتها هذه الفكرة، حتى غمرها إحساسٌ بالحرية، وشعرت أنها تستطيع أن تطلق الماضي ليرحل بعيداً. غير أنها ما زالت غير راغبة في التحدّث عن الموضوع.

ولمّا لاحظ نفورها، ازداد إلحاحه: «منذ متى وأنت تعرفينه؟ أكان

زميلك في الدراسة؟».

ـ لا، بل التقيت به بعد فترة من تركي للجامعة. كان قد مضى ثمانية عشر شهراً على عملي في لندن.

ـ إذن، فكيف التقيتما وأين؟

ـ التقيته في سوسكس. كانت محتويات أحد القصور، إضافةٍ إلى المكتبة، معروضة للبيع في المزاد العلني. فذهبت علّني أعثر على بعض الكتب.

لعلّ الكلمات ما أفلتت منها إلا بسبب هذا الظلام وهذه الظلال التي تحدق بها، أو كما قال جيدون، لأن التكلم يفيدها. وأياً كان السبب، فقد ألفت نفسها تباشر بسرد الرواية بكاملها.

ـ كنت أنتظر بداية المزاد، حين تقدّم مني وسألني إن كنت أملك بياناً مصوراً. ثم رحنا نتحدّث، وبعدها دعاني للغداء، ووافقت. كان عليه أن يعمل، لكنه تمكن من التملص، واصطحبني إلى بلدة قريبة، لنتناول وجبة. وما كان أشدّ سروره حين علم أنني أقيم في لندن مثله! وفي مساء اليوم نفسه، دعاني إلى تناول العشاء معه.

سألها جيدون بنبرةٍ ساخرة: «كنت مفتونة به كل الافتتان إذن؟».

أطلقت تنهيدةً ووافقته الرأي: «يمكنك أن تقول هذا. فبعد أقل من أسبوع، أخبرني أنه يحبني. وصدّقته، وطرت على أجنحة السعادة».

حثها جيدون: «تابعي».

وشعرت برأسها خفيفاً، وكأنها تسبح في الفضاء، ثم اضطرت إلى أن تركّز على كلامها: «وبدأ يدفعني لمشاركته فراشه مؤكّداً أنه أمرٌ طبيعي في هذه الأيام».

ـ وامتثلت له؟

ـ لا.

رفع حاجبيه استغراباً: «ولمَ لا؟ ألستِ من أولئك النساء الناضجات

اللواتي يملكن حرية الاختيار».

أكدت له: «بلى، لكن حرية الاختيار تعني أنه بامكانك أن تجيب بلا كما بنعم».

ـ لماذا اقتنعت إذاً؟ هل اكتشفت أنه كان متزوجاً أو ما شابه؟

ـ لاّ، فحينها، كان يبلغ من العمر الثانية والعشرين، أي أنه يصغرني بسنةٍ. ومع ذلك، لم يخفِ عني أنه كان زير نساء منذ سنّ الخامسة عشرة. ولم يكن هذا مفاجئاً نظراً إلى وسامته وجاذبيته القوية.

ـ وأستنتج أن حبيباته السابقات كنّ يتسابقن للوقوع بين ذراعيه.

ـ ويبدو أن الواحدة أو الاثنتين اللتين لم تقدما على ذلك، كانتا على حدّ قوله، مضيعة للوقت.

علق جيدون ببرودة: «تصفينه وكأنه شاب سطحّي أنانيٌّ، جديرٌ بالازدراء».

ومع أنها لم تكن تقصد ذلك، إلا أنه بدا استنتاجاً عادلاً.

ـ وماذا فعلتِ بعدئذٍ؟

تنهدت وتابعت: «واظبت على الرفض. فلم أكن أحبّ العلاقات العابرة ولم يكن هذا مطلوبي».

ـ أكنت تأملين نوعاً من... فلنقل... الالتزام؟

تمتمت وهي تحاول ألا تفغر فاها: «نعم».

ـ وفي النهاية استسلم، وابتاع لك خاتم خطوبة، أليس كذلك؟

هزت رأسها نفياً.

ـ ألم يشترِ لك خاتماً؟

ـ لاّ.

ـ هل أخبرك أنه ينوي أن يفعل؟

ـ لاّ.

ـ ولكن، هل جعلك تظنين ذلك؟

ـ ولا حتى هذا. لا يمكنني أن أقول إنه لم يكن صادقاً. فقد أخبرني منذ البداية أنه الرجل غير المناسب للزواج. وقال إنّ الرجال متعددو النساء بطبيعتهم، وإنه يصاب بالرعب من مجرد فكرة الارتباط بامرأةٍ واحدة طيلة حياته وبرأيه الزواج مؤسسةٌ باطلةٌ ومهجورةٌ.

ـ لكنك لم توافقيه؟

ـ لاّ.

ـ ماذا جرى؟

اضطرت إلى التحكم بأعصابها قبل المضي بالكلام:

ـ غضبت أشدّ الغضب مما سمّاه «موقفي الرجعي»، لكنه ظلّ يريدني. . .

ـ إذاً، بدل أن يهجرك كالأخريات، استمرّ يقنعك بتغيير رأيك.

ـ نعم.

ـ وهل نجح؟

ـ كلاّ.

رأت شفتي جيدون تضيقان قبل أن يضيف: «لعلك تحتاجين إلى شرح هذا».

وصعب على آنا أن تفكّر بوضوح. ورغم كل محاولتها، راحت تتلعثم في كلامها:

ـ في مساء أحد أيام الجمعة، شاهدنا عرضاً مبكّراً، ثم عدنا إلى شقته لتناول القهوة. وهنا، قام بمحاولةٍ أخرى ليقنعني بالبقاء. وحين رفضت، قال: «تعرفين أنني غاضبٌ منك، ولكن، لأثبت لك أن علاقتنا ليست بعابرة، أسألك أن تنتقلي للعيش معي». وحين لم أوافق وعدني قائلاً: «إن كنت قلقةً من النساء الأخريات، أعدك أنك المرأة الوحيدة في حياتي، وستكونين كذلك من الآن فصاعداً». بدا لي صادقاً، وظننت أنه قد تغيّر. . .

ـ لكنك لم تتوقعي حقاً من رجلٍ كدايڤيد أن يتغيّر؟

استدركت وأجابت بصوتٍ أجشّ: «وكيف علمت أن اسمه دايڤيد؟».

ـ لا شك أنك ذكرت اسمه.

لا تذكر أنها أشارت إلى دايڤيد بالأسم، ولكن ربما فعلت.

عندها أعلنت الساعة في الرواق انتصاف الليل، فقام جيدون من مكانه، وقال وهو يشاهد أهدابها تنسدل على عينيها:

ـ لقد حان وقت النوم، فأنت تكادين تنامين في كرسيك.

نظرت إليه والنعاس يداعب أجفانها: «كنت أنتظر بابا نويل».

ـ ألم تعلمك أمك أنه لا يأتي إن كنت مستيقظة؟ لكن إذا خلدتِ للنوم كأي فتاةٍ مطيعةٍ، فقد تسمعين أجراس مركبته الجليدية.

ثم أمسك شمعةً وسألها: «أجاهزة تقريباً؟».

وعندما حاولت النهوض بصعوبة كادت تفقد توازنها.

قال ونبرةٌ من التسلية في صوته: «يا لغبائي! لقد أضناك التعب. آه، لكننا سنتدبر الأمر طبعاً».

وما كان منه إلا أن أطفأ الشمعة ورماها على الطاولة، ثم تقدم نحو الكرسي، وحملها بين ذراعيه. كانت النار تضيء طريقهما حتى نهاية الغرفة، ثم استخدم كتفه ليفتح الباب، واستعان بالنور الذي بعثه الثلج من النوافذ، فصعد السلالم بسهولةٍ. ومن خلال الألواح الزجاجية، تمكنت آنا من رؤية الثلج بصعوبة وهو يغطي المكان. وكانت العاصفة تتابع عويلها بشكلٍ أسوأ. إذاً، لقد صحّ توقع جيدون. ومع ذلك، ولسببٍ خفي، لم تعد الفكرة ترعبها كما في السابق.

رفعت ناظريها إلى الوجه القريب منها، وتمتمت باتهام: «كان علينا أن نحضر شمعةً».

وفيما جيدون يسير في الممر، سألها: «ألا تظنين أن بإمكاننا الاستغناء عنها؟».

ـ لكنك قلت بنفسك إن النوم على ضوء الشموع رومانسيٌ.

اختلس إليها النظر، ورأت وميض أسنانه وهو يكشف عن ابتسامته: «ألا تعتقدين أن حملك إلى السرير رومانسيٌ أيضاً».

ـ هذا يحدث في القصص فقط.

ـ إنه يحدث الآن.

ـ لكنه خيالٌ وحسب، أليس كذلك؟

ـ حسناً، إليك ماذا سأفعل. تجنباً لخيبة أملك، سأنير الشموع في غرفة النوم.

فقالت بكآبة: «نعم، سيكون هذا لطيفاً».

كلما ازداد توغلاً في الممر، كلما ازداد وقع الظلام. لكنه ظلّ يسير بثبات، حتى وقف أمام غرفةٍ كبيرة، فدخلها ثم استخدم رجله ليغلق الباب خلفهما. عندئذٍ، أنزلها جيدون على مقعدٍ وثير وبدأ يضيء الشموع الثلاثة في الشمعدان.

ثم رفع حاجبه بسخرية وسألها: «أسعيدةٌ الآن؟».

أجابت بأدب: «نعم، شكراً».

ـ يجدر بي أن أضع واحدةً في حمامك، حتى إذا احتجت إلى غسلِ أسنانك...

ـ ألي حمام؟

ـ هذا هو الجناح الرئيسي. لذلك، فيه حمام عند كل طرف فيه، واحدٌ للرجال وآخر للسيدات.

ولسببٍ ما، وجدت الفكرة ظريفة، فراحت تقهقه وشعرت بالسعادة تغمرها.

ـ من الأفضل أن تستخدمي الحمام الأقرب.

ثم فتح الباب الأيسر وأدخل شمعةً إلى الحمام ثم عاد ليسألها: «إذا وجدت لك ثوباً للنوم، أتظنين أنه بإمكانك تدبر أمرك وحدك؟».

فردّت بحدّة: «بالطبع أستطيع. أشعر بقليل من الإرهاق ولكنني لست مريضة أيضاً».

ـ حسناً.

فتح حقيبتها وأخرج منها ثوباً للنوم ومناشف للاستحمام. وبعد أن وضع الثياب في الحمام، قال لها: «الحمام لك الآن».

ثم خرج تاركا الباب موارباً.

بعد قليل نهضت متوجهة إلى الحمام وهناك راحت تغسل أسنانها وتغمر وجهها ويديها بالماء. تمنّت لو تستمتع بحمّام ساخن، لكن المياه باردةٌ كالثلج. وعلى أي حال، فهي تعبةٌ جداً. عكست الشموع وجهها في المرآة. فإذا به شاحبٌ كما الأشباح، فيما العينان غائرتان تحدقان بغموضٍ في الفراغ. وما إن ارتدت ثياب النوم، حتى توجهت إلى السرير الدافىء.

وقبل أن تصل إلى السرير سمعت ضجة خفيفة وصوت جيدون يهمس: «مستعدة للنوم؟».

ـ نعم.

كان يرتدي روباً حريرياً طويلاً يصل حتى قدميه الحافيتين. فألقت عليه نظرةً وسألته: «أذاهبٌ إلى السرير أيضاً؟».

ـ نعم.

ـ وأين ستنام؟

ـ فكّرت في أن أقاسمك الغرفة، فنشعر بالدفء.

اختبأت في صدره، وهي تقول: «تعرف رأيي بهذا».

بدأت آنا تستيقظ تدريجياً. كانت بين اليقظة والنوم، وكانت الأفكار والأسئلة تحتشد في رأسها. لا يبدو هذا السرير كسريرها الخشن القاسي: فالفراش مريحٌ للغاية. إذاً فأين هي؟ وبعد صراع قصيرٍ مع ذاكرتها، عثرت على الجواب. إنها صبيحة الميلاد، وهي لا شكّ في منزل كليو. لكنها لا تذكر بتاتاً كيف أمضت مساء أمس، أو كيف غيّرت ثيابها وخلدت للنوم.

ثم جاهدت لتتذكر أكثر، فاستعادت منظرها وهي تغادر المتجر. كان الثلج يتساقط، ويغمر المكان ببساطه الأبيض. وكان عليها أن تشق طريقها إلى سيارتها بحذر. وما إن بلغت هذه الصورة، حتى انتعشت ذاكرتها، وما تبقى كان تسلسل صورٍ مرت كأنها تشاهد فيلماً ما. الحادثة.. رؤية جيدون ستراتج للمرة الأولى.. نقله إلى منزله.. العاصفة.. عرض العمل.. عطل المحرّك.. المساء المثير للاضطراب الذي أمضياه معاً.. الحديث الطويل الذي بدأته عن دايفيد.. والانجذاب الذي جمعهما.

لا، لم يجمعهما. بل كان من طرفٍ واحد. طرفها هي، فبرودته الاعتيادية، وسخريته ومحاولته إخافتها، كل ذلك يثبت أنه لا يشعر بشيء نحوها. لكن، لسببٍ تجهله، كان يرغب منها في البقاء.

لقد أمرها عقلها بالابتعاد قدر إمكانها، وربما نداؤه ذاك كان نوعاً من الحفاظ على الذات. لكن ذلك الانجذاب القوي الذي تحس به يدفعها إلى إلقاء المخاوف بعيداً والبقاء. ومع ذلك، كانت تعرف في أعماق قلبها كم من الغباء والخطورة ستتكبد لو بقيت هنا. فإن تركت ذلك السحر يسيطر عليها، فستنتهي جريحةً، وسينزف جرحها طويلاً، فهو لا يرغب فيها.

لا، لم تكن الحال كذلك. كان يرغب فيها فعلاً. فبإمكانها أن تشعر بذلك. لكن إن كان يشعر بجاذبٍ ما حقاً، فهو جاذبٌ منفر. وهكذا، عزمت على الرحيل بعد الإفطار مباشرة.

إنما، كيف ترحل وسيارتها معطلة، ومن غير الممكن أن تتصل بسيارة أجرة؟ فأي سائقٍ يعمل صبيحة الميلاد؟ وما عليها إلا تذهب إلى البلدة سيراً على الأقدام. فجأة بهر ضوء الشمس عينيها الناعستين، فأغلقتهما. وبعد برهةٍ أو اثنتين، فتحتهما مجدداً، فأبصرت السماء وقد أصبحت صافيةً وزرقاء، والشمس وقد أرسلت أشعتها الدافئة. ترى، كم الساعة الآن؟

وبينما هي تلقي نظرة على ساعتها، وقعت على المساحة الفارغة

بجانبها. فتجمدت وهي لا تأتي حراكاً: لا شك في أن شخصاً آخر قد نام هنا!

وعادت ذاكرتها ترسل سلسلةً أخرى من الصور.. استطاعت أن تتذكر نفسها محمولةً فوق السلالم. وفيما هي تجاهد لتتكيفّ مع هذه المعلومة الجديدة، سمعت حركةً في الخارج، ثم فُتح الباب ليكشف عن جيدون، وبيده صينية الفطور.

كان يرتدي سروالاً قاتماً وكنزةً سوداء تصل إلى العنق. وقد حلق ذقنه وغسل شعره الأشقر.

هتف بسرور: «صباح الخير».

ثم وضع الصينية على المدفأة وتابع: «أو لعله يجدر بي أن أتمنى لك بقية نهارٍ سعيد؟ فقد انقضى الظهر منذ وقتٍ».

ثم أضاف حطباً ليغذي النار، قبل أن يقترب من السرير وينظر إليها. بثوبها القطني المحتشم، وشعرها الأسود المنسدل على كتفيها، بدت له صغيرة جداً، وفي غاية البراءة.

أما هي، فأدارت وجهها ونظرت إليه بثبات. فتساءل وهو يلاحظ وجهها الشاحب المهموم: «أتشكين من سوء؟».

ـ لقد نمتَ في سريري.

ـ لا، بل نمتِ أنت في سريري.

ردّت وقد هزتها الصدمة: «أيها الحقير!».

فوبخها قائلاً: «ليست هذه بالتعابير المناسبة التي تستخدمها آنسةٌ تلقت تربيةً صالحة مثلك».

ـ لعلّها غير مناسبة، ولكنها مبررة. فمع أنك تعرف رأيي بالعلاقات العابرة، فقد تعمدت أن تغريني...

***

٥ ـ درسٌ لن تنساه

لم يحاول أن ينفي الاتهام، بل شرع في سخريته: «كم هذا مثيرٌ للمشاعر!».

أما هي، فظلت مصدومة: «لقد أقدمت على استغلالي».

بدت التسلية على تعابير وجهه وهو يقول: «يبدو وكأنه سطرٌ من روايةٍ من العصر الفيكتوري».

فسألته بمرارة: «كيف تبقى جامداً أمامي، ثم تضحك وأنت تعلم أنها الحقيقة؟».

فهزّ رأسه: «لكنني بريء من تهمتك».

ـ لا تحاول الإنكار أنك شاركتني سريري.

ـ لن أفعل. لكن ذلك لا يعني أنني استغليتك، أو حتى فكّرت في ذلك.

ـ وهل من سببٍ آخر لنومك في سريري؟

ـ إنها نقطةٌ حساسة. فبقية الأسرّة كانت أشبه بعلبٍ جليدية. والبرد القارس اجتاح هذه الغرفة في الصباح الباكر، ما إن خبت النيران، ففكّرت في أن النوم معاً سيبعث فينا الدفء لا أكثر ولا أقل.

ومع أنها أرادت أن تصدقه بشدة، إلا أنها استعادت ذكرى تلك المشاعر الجامحة على وجهه.

فهتفت بصوتٍ أجش: «أنت كاذب!».

ـ أؤكد لك أنه، عدا حملك إلى هنا، لم ألمس منك شعرةً واحدة.

نظر إليها نظرة عميقة ثم تابع بتكشيرةٍ ساحرة:

ـ لا يمكنني التكهن بما كان سيحدث لو بقيتِ مستيقظة، لكنك استغرقت في النوم سريعاً. وأنا لا أستمتع بمعانقة النساء النائمات بل أطالب أن يكنّ مستيقظات تماماً، لا بل متجاوبات.

فهمست بعد برهة: «أنا آسفة. ما كان علي أن أتهمك».

وحين لم يبدُ عليه أي تأثر، تلعثمت: «لم.. لم أقصد ذلك حقاً.. أنا آسفة».

وفجأةً، لم بعد باستطاعتها الاحتمال، فعضّت شفتها وراحت تحدق في السجادة البنية والقشدية اللون. فما كان منه إلا أن جلس عل حافة السرير، ورفع رأسها بيده الدافئة. وحين رأى الدمع المترقرق في عينيها، لان وجهه:

ـ لا تقلقي.

وعلى الرغم من حزنها، دغدغ أنفاسها العطر المنعش الذي ينبعث منه.

ـ آه! لا تبكي... وإلا اضطررت لمعانقتك.

فأخذت نفساً عميقاً وتمتمت وهي ترتجف: «يبدو وكأنه وعيدٌ».

ـ هذا ما قصدته.

ثم راح يراقب وجهها الشاحب، والظلال السوداء تحت عينيها، فتساءل: «هل أصبت بالرشح؟».

ـ نعم، وبدأ رأسي يؤلمني.

ـ سأجد لك دواء ما. والآن أتفضلين تناول فطورك في السرير، أم في المطبخ أمام النار؟

حاولت جاهدةً ألا تطرف عينها، منعاً للدموع من الانهمار، ثم

أجابت: «بل أمام النار في المطبخ».

بدا أنه يملك حلاً لكل مشكلة، فأخرج منديلاً نظيفاً من جيبه، وناولها إياه: «شكراً».

وسرعان ما جففت عينيها ومسحت أنفها.

ثم تابع بجفاف: «لن أنصحك بحمامٍ، فالمياه جليدية. لكن في الغلاية مياهٌ ساخنة، بإمكانك استخدامها».

ـ يبدو ذلك رائعاً.

ـ أتودّين فنجاناً من القهوة أو الشاي أولاً؟

ـ أودّ فنجاناً من الشاي.

ـ إذاً لازمي مكانك، وسأوافيك بعد دقائق.

بقيت آنا مكانها، لا تحرك ساكناً، تراقب ظهره وهو يختفي وراء الباب.

كانت تلملم شتات أفكارها، حين عاد بفنجانٍ من الشاي وأقراصٍ بيضاء.

ـ على هذه الأقراص أن تخفف عنك أعراض الرشح وفيما ترتدين ثيابك، سأبدأ بإعداد الطعام.

ثم أضاف وفي عينيه وميض: «وحين يحضر، سأرن لك الجرس».

كان قد قطع نصف المسافة إلى الباب حين نادته: «جيدون...».

استدار إليها ويده ما تزال على المزلاج.

ـ شكراً.

وعلم الاثنان أنها كانت تشكره على ما يفوق فنجان شاي بكثير. فمنحها ابتسامة ساحرة، أضفت الدفء على وجهه، ثم أغلق الباب وراءه بهدوء.

كانت آنا تشعر بالارتجاف. فجلست مكانها، ثم تناولت الأقراص وارتشفت الشاي. لأول مرةٍ في حياتها، تشارك رجلاً سريره، وهي،

بحسب رأي كليو، مناسبةٌ هامةٌ جداً.

حمدت الله لأنها غطت في إغفاءةٍ، اتضح أنها كانت السلاح الأفضل لا في وجهه فحسب، بل في وجه ضعفها أيضاً. فلم يَخفَ عليها أنها تعلقت به منذ رأته للمرة الأولى وكأنه حب من النظرة الأولى.

ثم راحت تعنّف نفسها: «لا تكوني غبية».

فهي بالطبع لا تحبه. بل كل ما تشعر به نحوه هو السحر، والافتتان، والانجذاب، أي كل المشاعر ما خلا الحب. لقد ظنت أنها مغرمة في يوم من الأيام، وما شعرت به نحو دايفيد، ها هو يتكرر الآن. والشبه الأكبر هو أن الرجلين، رغم سحرهما، لم يرغبا إلا في استغلالها. وأحست أنها، في الحب، ستكون دوماً الخاسرة الكبرى. وهي الآن مصممةٌ، رغم كل شيء، على الرحيل عن المانور والابتعاد عن مالكها قدر الإمكان.

لكنها، على الأقل في تلك اللحظة، عاجزةٌ عن الرحيل. فما زال في جعبة القدر ساعاتٌ قليلةٌ عليها أن تمضيها برفقة جيدون. وبدل التأسّف، عليها أن تستفيد من هذه المرة الأخيرة معه، وأن تستمتع بها ما وسعها إلى ذلك سبيلاً. أزاحت عنها الغطاء ونهضت عن السرير، ثم ارتدت المبذل الملقى على الكرسي، وسارعت إلى الحمام وولجته. كانت تفوح من الحمام عطر الجل المميز، وكانت قطرات الماء تزين المرآة الثابتة.

وقعت على حقيبةٍ من اللوازم الرجالية فوق المغسلة، إلى جانب آلة حلاقة تعمل بالبطارية وعطر ما بعد الحلاقة، لكنها لم تعثر على حقيبتها هي. ثم تذكرت كلام جيدون عن حمامين. فاجتازت الغرفة، لتجد حماماً فاخراً آخر وردي اللون. لحسن الحظ، أن الباب كان موارباً، مما سمح للدفء بالتغلغل إلى الداخل. كانت ثيابها مبعثرةً على الأرض، وحقيبتها على الرف إلى جانب الشمعة المحترقة. اقتربت من المغسلة وأخذت تنظف وجهها بإبريق فيه مياه دافئة. بعدئذ ارتدت سروالاً فضفاضاً بني اللون، وكنزةً صوفيةً بلون القشدة. كانت تسرح شعرها، حين سمعت

رنين جرسٍ شديد الوقع، فأغلقت باب غرفة النوم، ونزلت السلالم وهي تنظر من فوق الدرابزين السندياني، إلى حيث يقف جيدون ومطرقةٌ دائرية الراس، ضخمةٌ في يده.

سألته: «أسبق أن عملت لحساب ج. آرنزرانك حين كنت في الولايات المتحدة؟».

فأرجع رأسه إلى الوراء، وابتسم ابتسامة عريضة ثم قال: «أخشى أنني لست محتالاً إلى هذه الدرجة».

كانت تشعر بالتفاؤل لأول مرةٍ منذ أسابيع، فتقدمت خطواتٍ أخرى لتلتحق به.

وما إن وصلت إلى أسفل السلالم حتى تناول يديها وقال: «ميلادٌ مجيد».

تأثرت بلمسته وبقربه، فردت له تحيته: «ميلاد مجيد».

كانت عيناه مثبتتين عليها. فراحت تراقبه يقترب منها ووجهه يميل نحوها، وكأنه يحاول أن يقبلها. فما كان منها إلا أن حبست أنفاسها وانتظرت. لكن، ما إن انقضت برهة حتى أفلت يديها وحوّل وجهه بعيداً، وهو يضيف بلهجة من عاد إلى الواقع.

ـ الطعام جاهزٌ، فهيا بنا.

وبعد وجبةٍ لذيذةٍ تناولاها أمام النار، تمدد جيدون وهو يقول: «والآن نحن بحاجة إلى بعض التمارين».

كانت آنا تشعر بمزيجٍ من الراحة والدفء والكسل، فرفعت إليه ناظريها قائلة: «قم بالتمارينَ وحدك».

فرفع حاجباً وأردف: «يا امرأة، لا يمكننا أن نمضي يوم الميلاد في التراخي والكسل. علينا أن ننجز بعض الأعمال».

ـ كإصلاح المولّد مثلاً.

فهز رأسه وأجاب: «أخشى أنه حالةٌ ميؤوسٌ منها. لكن من حسن

حظنا أن مخزن الأطعمة بارد كثيراً وهكذا لن يفسد الطعام».

فتجاهلت جملته الأخيرة وسألته: «وكيف تعرف أنه حالةٌ ميؤوسٌ منها؟».

ـ لقد تفحصته هذا الصباح حينما كنت نائمة، ولم أستطع أن أكتشف موطن السوء فيه. والآن، إلى العمل! فعلينا أن نقطف بعض أغصان الهولي ونقطع بضعة أغصانٍ من الصنوبر، ثم نقتلع شجرةٍ لعيد الميلاد. ولقد وقع اختياري على واحدةٍ، تنمو إلى يمين الأيكة».

ـ علينا؟ أليس هذا عملٌ خاص بالرجال تقريباً؟

ـ ظننت أن النساء يطالبن بالمساواة في هذه الأيام.

فسارعت إلى طمأنته: «أرحب بمساعدتك طبعاً. لكني للأسف خلّفت الملابس الخاصة بالزراعة في المنزل».

سألها وهو يمسح حذاءه قرب المدفأة: «أهذا كل ما تملكينه الآن؟».

ـ عدا زوج من الأحذية وهذا.

ثم رفعت قدميها فظهر خفٌّ من المخمل الأسود. فهزّ رأسه وأضاف: «كيف لامرأةٍ بمثل هاتين العينين الجميلتين، ألا تتحضّر؟».

ـ أخشى أن الضباب قد اكتنف كرتي البلّورية، فحين غادرت المنزل في صباح الأمس، لم أكن أعرف أن الثلج سيتساقط.

ـ إذاً، فأول ما نحتاج إليه هو أن أزودك بالعدة. وفيما أتفقّد الحاجيات، تناولي فنجان قهوةٍ إذا شئت.

فعلّقت وهي تعيد ملأ فنجانها: «إن كرتك البلّورية على الأقل في أحسن حال».

كانت القهوة حارة وتفوح منها نكهةٌ مميزة، فتردد لبرهة ثم ملأ فنجانه أيضاً.

ـ ظننت أنك ستتفقد الحاجيات؟

فابتسم لها، حتى خيّل إليها أن قلبها قد توقّف عن الخفقان.

ـ ما كان عذر آدم؟ آه.. لقد أغرتني المرأة. ولكن، بعد لحظاتٍ من التساهل، سأسارع إلى مهمتي.

ـ من دون إهمال؟

ـ أبداً.

ما إن ابتلع جيدون قهوته، حتى وضع الفنجان جانباً، واختفى في حجرة الخدم. أما آنا، فلازمت مكانها وهي تتمنى لو تدوم هذه اللحظات القصيرة من الصداقة.

وسرعان ما عاد ومعداتٌ متنوعة في ذراع، وزوجان من الأحذية العالية الساقين في أخرى، ثم نثرها كلها على الرفّ.

ـ هذا كل ما نحتاج إليه. فردتا البوط العالي الساقين بالقياس نفسه. ومع أنهما واسعتان جداً على قدميك، لكن بامكانك استخدام أي نوعٍ من الجوارب. وكمعاملةً خاصة، سأترك لك الآن أن تختاري اللون أولاً.

فأجابت بحزم: «أختار الجوارب الحمراء».

وبعد خمس دقائق، ارتدت بنطالاً مضاداً للمياه وكنزةً سميكة، إضافةً إلى سترةٍ رجالية من جلد الغنم. ثم اعتمرت قبعةً صوفيةً حمراء والتحفت بوشاح وزوج من القفازات. أخيراً تبعت جيدون الذي تسلح بالثياب نفسها، إذا ما استثنينا رأسه العاري. ولما بلغا غرفة المعدات، انتقى جيدون واحداً من الفؤوس المرتبة وقال: «سيكون مثالياً لقطع الشجرة».

ثم أشار إلى حطبةٍ كبيرة في الزاوية وأردف: «وإذا ما استخدمنا هذه، فلن يكون علينا أن ننشر جذعاً لدعم الشجرة».

ثم راقب حذاءها الثقيل وسترتها المزعجة، بأكمامها الطويلة وكتفيها العريضتين. فبدت التسلية على وجهه، وتساءل: «أتملكين من القوة ما يدفعك إلى التحرك رغم هذا الثقل؟».

فأجابت بشموخ: «بالطبع. ففي هذا اللحظة، أستطيع أن أنوب عن الفأر الخارق».

نظر إليها متفحصاً ثم هزّ رأسه: «قد تكون الكتفان بالعرض نفسه، لكن أذنيكِ ليستا كبيرتين بما فيه الكفاية».

ثم غطاهما بالقبعة الصوفية التي كانت ترتديها، قبل أن يجمع سلسلةً من الآلات، ويفتح الباب المؤدي إلى مصطبةٍ ذات سورٍ منخفض.

كانت الشمس ترسل أشعتها الساطعة، وفي سماءٍ زرقاء صافية، ولكن الهواء بقي بارداً، فالثلج وصل حتى ركبتيهما.

وحذرها جيدون: «لا تنسي أن ثلاث درجات تفصلنا عن الحديقة».

وبعد أن اجتازت الدرجات، لاحظت آثار أقدام على الجليد ورأت إلى اليسار مبنى من طابق واحد. بالنظر إلى تصميمه، لا شك في أنه كان مكاناً واسعاً للتدريب في ما مضى. أما الآن فهو يستعمل كمرآبٍ لسيارات الأسرة وكمقرّ للمولّد، ثم علقت وهي تتذكر.

ـ أتعرف أنني لم أرَ مولداً من قبل.

فرفع حاجباً، دليلاً على السخرية: «وهل هذا يزعجك؟».

ـ ليس تماماً. ولكنها قد تكون فرصتي الوحيدة لرؤية واحدٍ.

فقال وهو يصرف النظر عن الموضوع: «ليس فيه ما يُرى. فهو مجرد آلةٍ تحويل الطاقة الميكانيكية إلى أخرى كهربائية».

فأجابت بنبرة لاذعةٍ تقريباً: «أعرف ما هو».

ثم أضافت بحزم: «ولكنني قصدت أنني لم أرَ واحداً في حياتي، وأنني أرغب في مشاهدته».

فذكّرها بصرامة: «أمامنا عمل ننجزه».

لكن رفضه لرؤيتها المولد لم يزدها إلا إلحاحاً: «لن يستغرق الأمر طويلاً. وسألقي عليه نظرةً سريعة».

لم يعرف هل يغضب من إلحاحها أم يضحك له، وفي النهاية وافق: «حسناً، المكان ليس مغلقاً، فهيا بنا».

ثم وضع مقص التقليم من جيبه، وأسند المنشار والمجراف إلى سور

المصطبة، وتقدّمها إلى المنزل القديم، باتجاه بابٍ جانبي.

في الداخل، كان المكان واسعاً، عالي السقف، حجري الأرض. ولمحت مدخلين أساسيين، أحدهما على ما يبدو لم يستعمل منذ وقتٍ طويل، والآخر، في زاويةٍ بعيدة، يؤدّي إلى سبع كاراجات صغيرة يتسع كل واحد منها لسيارة واحدة. وكانت الجدران ناصعة البياض، تتخلّلها نوافذ طويلة، وإلى جانبها طاولة حرفيّ تعلوها عدة رفوفٍ، صفت عليها مجموعة من آلالات المتنوعة. ومن بينها لمحت مشعلاً مكسواً بالمطاط، فأشارت:

ـ هاك مشعل.

فأقَر من غير ارتباك: «نعم، لقد لاحظته في هذا الصباح. لكن البطاريات، للأسف، فارغة».

تساءلت بينها وبين نفسها: لماذا تراه يملك دائماً إجابةً عن كل سؤال؟

وكرجلٍ خبير، أشار إلى آلةٍ يحيط بها حاجزٌ عالٍ: «هذا هو. . مولّدك الأول بالذاتّ».

ومع أنه بدا معقداً في نظر آنا، إلا أنّه أصغر بكثير ممّا توقّعت.

سألها: «هل أنت راضية؟».

أجابت بأدب: «نعم، شكراً».

فاقترح وقد عيل صبره: «إذاً، هلاّ انطلقنا؟».

كان الجوّ من البرودة ما يمنعها من المطالبة بالبقاء. فاستعدت لمرافقته، ولكن في هذه اللحظة بالذات لمحت في زاوية بعيدة من المكان شعاعاً منيراً تعكسه آلةٌ حديدية استرعت انتباهها. وبدافع فضوليّ، تقدّمت إلى الأمام ونظرت عن كثب. وإذا «بالآلة الحديدية» تستحيل طرف سيّارة.

تجاهلت الباب الذي كان يفتحه لها، وتقدمت أكثر نحو السيارة الفضية. ومع أنها لم تكن من الطراز الجديد، إلا أنها كانت مطليةً حديثاً

ومُعتنى بها. وحين لم يبدُ عليها أي رغبةٍ في اللحاق بجيدون، صفّق الباب وتبعها إلى حيث تقف.

تطلعت إليه عيناها باتهام:

ـ في الليلة الماضية، قلت لي إنك لا تملك سيارةً أخرى، وإنك بعت كل السيارات بعد وفاة أبيك.

ـ قلت إنني بعت كل سيارات العائلة، أما هذه فتنتمي إلى آل موريسون.

هزّت رأسها قليلاً، وهي لا تستطيع أن تصدقه: «لا تبدو لي هذه من السيارات التي يمكن لأشخاص عاديّين أن يمتلكوها».

فأقرّ جيدون: «كانت تخصّ العائلة في ما مضى. ولكن، حين تدبرت بيع باقي السيارات، أخبرت آرثر أنه يستطيع الاحتفاظ بهذه، فقد كان يعتني بها على مدى خمس عشرة سنة، ولطالما كانت مدعاةً لفخره وسعادته».

لكنها لم تحاول أن تخفي شكها: «ولماذا لم يستقلاها خلال عطلتهما إذاً؟».

أجاب بهدوء: «المسافة حتى سكوتلاندا بعيدة. وكان عليهما أن يأخذا سنّهما وطبيعة الطقس في عين الاعتبار، وفي النهاية قرّرا أن يستقلاّ القطار».

حين صاغ كلامه على هذا النحو، بدا لها منطقياً تماماً. فشعرت بالخجل قليلاً، وتمنت لو أنها لم تغظه بهذا الشكل، لذا اعتذرت: «أنا آسفة، لكن الأمر بدا لي. . . غريباً قليلاً».

فأكّد لها مستعيداً جوّ المرح الذي تحلّى به في الخارج: «لا داعي للأسف. فأنا لا ألومك البتة بسبب رغبتك في تفسير. فلو كنت مكانك، لفعلت المثل».

وما إن أغلق الباب وراءها، حتى هتف بابتسامة عريضة: «هيا، أيها

الفأر الخارق، إلى العمل...».

فثنت عضلاتها وسألته: «ماذا تريد مني أن أفعل؟».

أخرج مقص التقليم من جيبه واقترح: «لعلك تستطيعين قطع بعض أغصان الهولي، فيما أقوم أنا بالبقية؟».

ـ بالطبع.

حذّرها: «لازمي هذه المنطقة قدر استطاعتك فالأرض في الجانب الآخر زلقة وغير مستوية».

أجابته بمرح: «سأتكيّف مع الوضع. فبخلاف كاليفورنيا، يتساقط الثلج هنا كل شتاءٍ تقريباً».

ألقى عليها نظرةً فيها وميضٌ غريب، فردّت عليها بابتسامةٍ بريئة.

كانت شجيرة الهولي على طرفِ أرضٍ وكانت أوراقها خضراء بينها ثمار حمراء عنبية.

وجدت آنا صعوبة في المشي، لكنها تقدمت بتصميم نحو الشجيرة، ثم أمسكت بعض الأغصان لتقطعها. ومن دون سابق إنذارٍ، انهارت عليها كتلةٌ من الثلج، فأوقعت المقص، وترنّحت إلى الجانب. ومباشرةً، وجدت نفسها تنجرف بشدة، وفقدت توازنها بالكامل. وفي النهاية، وقعت على ظهرها وكومة عملاقة من الثلج فوقها.

حاولت أن تزيح الكتلة الباردة عن وجهها وهي تشعر بالاختناق. كانت تجاهد للنهوض، حين رأت جيدون يقف فوقها، ينظر إليها بتمعن. ثم لوى شفتيه فجأةً، فما كان منها إلا أن حذرته: «إياك أن تجرؤ!».

فخلع عنه قناع التظاهر، ونظر إليها بعينين تتألقان مرحاً ثم أرجع رأسه إلى الوراء واستغرق في الضحك. كانت ضحكته جذابة، فانتقلت إليها العدوى وشاركته في القهقهة. وإذا بيديه القويتين تمسكانها من معصمها وتنتشلانها من الثلج. وما إن استعادت توازنها، حتى انتشل قبعتها الصوفية ونظفها من الثلج ثم أعادها إلى رأسها ووبخها بسخرية.

ـ إذا كنت تعتقدين أنك لا تستطيعين التكيف، رغم كل شيء، فأعلميني.

كان قد اجتاز مسافةً قصيرة حين أصابته كرة سدّدت بمهارة نحو عنقه.

ـ أهكذا تشكرينني على إنقاذك؟

وتبع ذلك معركة ثلجية، كانت خلالها تتراجع فيما هو يتقدّم تدريجياً. كانت تفصله عنها بضع خطوات حين أصابته كرةٌ ثلجية في وجهه مباشرةً.

فأمسكها قائلاً: «أيتها الـ...».

ثم انحنى إليها ببطء وعانقها. في البدء، أحست بجسمه بارداً، ولكن الدفء سرعان ما تسلل إليها مع اشتداد عناقه وقعاً. وفجأةً، نسيت شعرها المبتل، واختفت الحديقة البيضاء حولها من الوجود، ولم يعد في العالم إلا ذراعاه حولها.

ثم أفلتها ببطء، ويداه ما زالتا على وجهها وكأنهما تأبيان أن تغادراه، ثم قال: «ليكن هذا درساً لك».

بدت عاجزة عن الإجابة، وكانت كالمخدرة وهي تستدير لتلتقط مقص التقليم عن الأرض، لتتابع مهمتها. ومع أنه عمد بكلماته إلى مضايقتها، إلا أن أنفاسه المتسارعة وصوته الأجش أعلماها أن تأثره بالعناق يفوق ما يوحي به.

فبسبب كل تلك الثياب السميكة التي يلبسانها، وحرارة الطقس المزعجة، كان على عناقهما أن يكون خالياً من أي تأثير. لكن يمكنها أن تنعته بكل الصفات إلا هذه.

وبعد أن اقتطعت بعض أغصان الهولي وبعض أغصان الصنوبر، أخذ الجو يبرد فالشمس توارت والسماء الزرقاء تغيّر لونها.

علّق جيدون: «يبدو أن الجليد سيحل الليلة، وسيصعب على المرء

مغادرة منزله لأربعٍ وعشرين ساعةٍ».

ثم أضاف بمرح: «من الجيد أن أياً منا لن يذهب إلى أي مكان».

وفوجئت آنا بالفرح الداخلي يغمرها. فحاولت أن تخفي هذا الجنون، وتعلقت بعقلها الذي أخذ يرسل إليها إشاراتِ تحذيرٍ، ثم قالت بحزم: «إذا كنت لا أملك خياراً إلا البقاء...».

فقاطعها وهو يحاول أن يبدي أسفه: «أظن أنك لا تملكين الخيار».

- إذاً، أريد أن أتأكد من شيءٍ ما.

رفع حاجبه وسألها: «وما هو؟».

- لا أملك أي نيةٍ في أن أشاركك غرفتي أو سريري.

- حسناً جداً، سأنتقل من الغرفة.

أصيبت آنا بالدهشة، لأنها توقعت أن يجادلها، أو على الأقل، أن يتملقها، لكن هذه الموافقة السريعة صدمتها.

فبادرت إلى الرد: «ليس هذا ضرورياً. سأكون راضية جداً بغطاءٍ أمام النار في المطبخ».

فهزّ رأسه: «أنت ضيفةٌ هنا. وإن كان من أحدٍ لينام في المطبخ، فهو أنا. فإنني معتادٌ على الفراش الخشن».

احتجّت مدفوعةً بإحساسٍ من الذنب: «لا أريد أن تقضي ليلةً مزعجة بسببي».

- لن يحدث هذا. وفي الواقع، سأحضر وسادةً وشراشف ملائمة إلى الأسفل، إذا كان هذا يسعدك. والآن، أيمكنك أن تحملي هذه الأغصان من دون أن تجرحك الأشواك؟

وبعد أن أعادا العدة إلى مكانها، قال لها وقد رآها ترتعش: «أقترح أن تعودي إلى الدفء الآن، وسأهتم أنا بالبقية».

فعمدت إلى رمي ثيابها الثقيلة، ثم علقتها على المشجب، قبل أن تجلس على مقعد لتبدأ بخلع حذاءها العالي الكعبين. وبعد أن انتهت من

تلك المهمة، كانت يداها قد اتسختا بالكامل من جرّاء الوحل الملتصق بحذائها. ومع أنها أدركت أن الحمام يقع في نهاية الرواق الطويل، إلاّ أن الاستحمام بمياه مثلجة في غرفة شديدة البرودة لم يبدُ لها مغرياً جداً.

وكأنّ جيدون قرأ أفكارها، فقال: «الجوّ أكثر دفئاً في المطبخ، وستجدين إبريقاً فيه مياه فاترة تنتظرك».

وبجوربيها المستعارين، خطت نحو الغرفة، فإذا بالدفء يستقبلها، فغسلت وجهها ويديها بسرورٍ عظيم. في هذا الوقت كان جيدون قد فرغ من مهمته في المطبخ، إذ وضع أغصان الهولي والصنوبر في مكانها وركز الشجرة إلى يسار الموقد. وأخيراً، علّق: «كل ما يحتاج إليه الآن هو بعض الزينة».

- أتملك بعضاً منها؟

- كانت العلبة موجودةً في خزانةٍ في حجرة نوم الأطفال. فإذا لم نجدها فلن يبقى أمامنا إلا الارتجال.

ثم أمسك بكومة من الحطب وأضافها إلى النار. فتوجهت إليه بالحديث: «لقد تركت لك نصف المياه الفاترة، إذا قررت أن تغسل يديك».

- يا لك من امرأةٍ كريمة!

فأمسك بالإبريق وتوجه إلى المغسلة، ثم خلع ساعته، وكنزته التي تصل إلى العنق، وألقاهما جانباً ليستطيع غسل يديه.

كان شعره الأشقر متدلياً بإغراء حتى مؤخرة عنقه فتاقت أناملها لملامسته. وفي محاولةٍ لكبت هذا الدافع الجنوني، جمعت يديها في حجرها. وراحت تراقبه وهو يغتسل، فيما أنفاسها تتقطع باضطراب.

بدا عريض المنكبين، مفتول العضلات، وكأنه كان يمارس عملاً يدوياً طيلة حياته. وباختصار كان جسده رائعاً. أما بشرته السمراء، فضانيةٌ وناعمة، من دون أي ندبة أو شائبة هنا وهناك.

ثم أخذت نظراتها تلاحق ذراعه اليسرى.

وأخذت تفكر كيف يعقل أن يقع على الرصيف الحجري، فتشل ذراعه بصورةٍ مؤقتة، من دون أن تصاب ولو بخدش. وكأن تلك الفكرة المزعجة قد تسللت إليه، فقد التفت إليها وألقى عليها النظر.

ـ ما بك؟

بدت حائرة: «ما من ندوبٍ... على مرفقك».

فأجاب ببساطة: «أخبرتكِ أن ذراعي ستعود إلى سابق عهدها بحدود اليوم. فأي إصابةٍ تطرأ على المرفق يمكن أن توقفه عن الحركة من غير أن تخلّف أي خدش».

ومع أن رده كان ملائماً، إلا أنها لم تشعر بالرضا أو الاقتناع. ولكن، لماذا تراه يتصنع الإصابة؟ كل هذا غير منطقي! غير أنها منذ التقته، والعديد من الأحداث غير المنطقية تمرّ بحياتها.

***

٦ ـ ماذا تهديني؟

بعد أن جفّف شعره، ألقى المنشفة جانباً، ثم ارتدى كنزته، واستردّ ساعته. وما لبث أن سرح شعره الأشقر الكثيف وهو يقول: «والآن، البند التالي على جدول الأعمال هو إعداد شراب ساخن».

فوافقته: «سيكون فنجان الشاي رائعاً».

ـ ولكنني أفكّر في إعداد شراب الميلاد احتفالاً في هذه المناسبة.

فسألته وقد تنبهت لنبرة الحذر في صوتها: «وماذا تضع فيه؟».

ـ عصير بعض الفواكه الطازجة والتوابل، إضافةً إلى دبس السكّر لا غير. أؤكد لك أنه غير مضرّ أبداً.

برّرت كلامها: «لصديقتي كليو نسخةٌ مهلكة. فما زلت أذكر الميلاد المنصرم، حين سبب لي كأسٌ واحدٌ صداعاً أليماً».

ـ بالحديث عن الصداع، كيف حال الرشح عندك؟

ـ لقد خفّ كثيراً. شكراً.

غرقت في مقعدها ومدّدت رجليها نحو النار، وهي تستمع لجيدون، يفتح الخزائن ويحضّر الشراب الحار المليء بالتوابل. ومع أنها لم تكن تنظر في اتجاهه، إلا أنها وعت تحركاته بشدة. وعرفت أنه يعمل بفعاليةٍ وسرعة تعكسان مدى قدرته على الاعتناء بنفسه.

أيعني هذا أنه لم تكن له حبيبةٍ تشاطره المنزل؟ لا، قد لا يكون هذا الاستنتاج صحيحاً. أما لو صحّ ذلك، فإنه يثبت أن جيدون ليس من

الرجال الذين يرتاحون ويدعون النساء ينفذن طلباتهم.

ـ ها قد أنهيته.

نظرت آنا إلى الأعلى لتفاجأ به يقدّم إليها كوباً ينبعث منه البخار. فتغلغلت إلى أنفها رائحة قوية لطالما ربطتها بالميلاد. ودغدغ أنفاسها شذا القرنفل والقرفة إضافةً إلى مزيج الليمون ودبس السكّر الأسود. فارتشفت الشراب بحذر ثم استرخت. كان حافلاً بنكهة الفواكه وغير مؤذٍ بتاتاً.

حين فرغ كوبها، وقف جيدون على قدميه وأعلن بنشاط: «والآن، من الأفضل أن أضرم النار في غرفة النار، ثم أتفقد زينة الميلاد».

ومن خلال النافذة، رأت آنا أن الليل بدأ يسدل ستاره على المكان، فيما الظلال تتجمع من زوايا الغرفة.

ـ ألن تحتاج إلى شمعةٍ؟

ـ حين كنت في البناء القديم هذا الصباح، عثرت على مصباحين، وعلى وعاء مليء بالزيت. وسيكون هذا أكثر ملاءمةً.

ثم راقبته وهو يستخرج المصباحين ويملؤهما بالزيت، وبعد أن فرغ من ذلك، عدّل الفتيلة ثم أضاءهما. فأعجبت بمهارته وتمتمت:

ـ يبدو لي أن مهاراتك تعود إلى القرن التاسع عشر أكثر مما تعود إلى القرن العشرين.

تصنّع الحزن وأجاب: «أتلمحين إلى نقص خبرتي في الميكانيك؟».

أضافت بوقاحة: «بل قصدت أن أقدّم لك إطراء. لكن إذا كنت تظن أن كلامك صحيحٌ...».

فمسح الزيت عن يديه وراح يهددها: «لاحقاً، سأحصل على مستحقات العقوبة التي ستنالينها على هذه الملاحظة».

تذكرت العناق في الحديقة، وبدأت ترتعش بمزيج من الذعر والإثارة. لكن عليها أن تكبت ردة الفعل هذه، فهي خطيرةٌ للغاية، وعليها أن تكون على حذرٍ وتحترس من جاذبيته وقدراتها. يكفي أن تذكّر نفسها

بأنه لا يكترث لها البتة. فكل ما يريده هو التسلية في عيد الميلاد. وهي لا تملك أية نية في توفير سبيل الاستمتاع له.

في هذا الوقت، قام جيدون بإسدال الستائر للتخفيف من آثار الصقيع، ثم اختار أحد المصباحين وتقدم نحو الباب.

بالمقارنة مع كنزته السوداء التي تغطي العنق، أضاء التوهج وجهه وشعره، وكأنه أحد آلهة الشمس عند شعب الازتيك القديم، وهو معبودٌ قوي قاس لا يرضي بغير الدم تضحية.

هي مجرّد فكرةٍ مجبولةٍ بالخيال. لكن، صحيح أن جيدون ليس بإله، إنّما يشع منه القوة وقساوة لا شك فيهما. وبحسّ غريزي أدركت أنه ليس من الرجال الذين يقدمون لأعدائهم أي تنازلات.

هزت رأسها، وهي ترثي لنفسها على ومضات الخيال المأساوية هذه. ثم عقدت العزم على العودة إلى أرض الواقع، فتوجهت إليه بالكلام:

ـ أباستطاعتي أن أساعد في تحضير وجبة المساء، فيما تبحث أنت عن الزينة؟

أوقف سيره وأعلن: «أنت امرأةٌ ممتازة! ومع أن وجبة الميلاد التقليدية لا تكون إلا من ديك حبشٍ سبق أن شُوي وحُشي، فقد آن الوقت لوضعه في الفرن. فهلاً فعلتِ ذلك؟ ولا ضير من أن تضعي الكايك في الفرن أيضاً».

ـ بالطبع، أمن شيءٍ آخر؟

هزّ رأسه نفياً: «تجنباً للكثير من العمل، قمت بشراء الأطعمة الجاهزة».

وبعد وقتٍ، نفذت ما أوكل إليها من مهام، ثم عادت إلى مقعدها، فإذا به يقبل وفي يده صندوقٌ كرتونيٌ كبير. وأعلن بانتصار: «لقد نجحت!».

ثم وضع المصباح على الطاولة، وفتح الصندوق فبعثر أمامه مجموعةً

من زينة الشجرة.

ـ لقد عثرت حتى على جنيةٍ بدينة لتثبيتها في أعلى الشجرة. كانت هذه الدمية المفضّلة لأختي، وحين خبأتها في إحدى السنين، ضربتني بشاحنةٍ صغيرة، وراح الدم ينزف على أرضية حجرة الأطفال، مما يثبت النظرية القائلة أن عنصر الإناث أكثر فتكاً من الذكور.

أجابت بحدةٍ: «لا أصدق كلمةً مما قلته».

اقترب منها وانحنى أمامها: «ولكنه صحيحٌ، انظري، فالندبة موجودةٌ لتثبت ذلك».

ومع أنها اقتنعت أنه تعمد أن يسيء فهمها، إلا أنها وجدت نفسها مضطرة للنظر إلى ندبةٍ صغيرةٍ على شكل منجل في شق ذقنه. وكان وجهه قريباً جداً منها، حتى أحسّت بأنفاسه. ثم انتقلت عيناها إلى وجهه المتناسق وكأنها تعجز إلا أن تفعل ذلك. ومع أنها تدرك أنه جنونٌ تام، إلا أنها ارادت أن تشعر به قربها، لا بل أرادته أن يعانقها.

ولعل تعابير وجهها فضحتها، فقد ابتسم فكشف عن أسنانٍ بيضاء لمّاعة. وما لبث أن سرى بينهما تيارٌ من الإثارة فاضطربت وراحت الحرارة تتسلل إليها.

كانت كل يدٍ منه مسمرةً على أحد ذراعي الكرسي، وكأنها باتت سجينته. ثم ازداد دنواً منها، فصعقها خوفٌ مفرط، وما كان منها إلا أن صرخت: «لا تفعل!».

رفع حاجبه الأسود استغراباً:

ـ مع مرور الزمن، لا يعود لتلك الندبات هذه الأهمية. فلا داعي لكل تلك الحساسية.

أجابت وهي تطبق أسنانها: «أنت تدرك كل الإدراك أنني لا أتكلم عن ندبتك».

ـ آه! أخائفةٌ من أن أعانقك؟

ـ لا أحبّ أن يعانقني أحدهم على الرغم مني.

ـ أمتأكدةٌ أنه على الرغم منك؟

ـ متأكدة تماماً.

ـ أشك في ذلك. وفي الواقع، لا أصدّق أنك بالبرودة التي تدعينها أو أنك بعيدةٌ عن المتناول. لكن، إن صادف أنني مخطىء، فاعتبري الأمر كالعقوبة التي كنت أتوعدك بها.

ثم سحقها بعناقٍ.. في لمسانه أشواكٌ خشنة. وما لبث أن أبطأ بشكلٍ مثير للعذاب. فاستبد الارتعاش بقلبها. وودّت يداها بشدة لو تستجيب. لكنها تمكنت، وبطريقةٍ ما أن تسمرهما مكانهما.

أما هو، فراح يعانقها بشوق وكانت ترتجف تحت وقع لمسانه اللطيفة. ومن بين كل ذلك، همس لها: «لماذا لا تبادلينني العناق؟ تعرفين أنك ترغبين بذلك».

ـ بل لا أرغب...

وبهمسة رضا، أسكتها بعناق آخر، أشد وقعاً من الأول، عناق دفع بخفقات قلبها إلى التسارع، وفجّر الدم في شرايينها. وبدا وكأن كل عصبٍ في جسدها يضجّ بالحياة، فاستجابت لعناقه، وتركت الحرية لنفسها لتنعم بشغفه الغامر.

وكما أشباح الليل التي لم تكن يوماً، تلاشت كل شكوكها وعرفت أنها لن ترفع إصبعاً واحداً لتمنعه. ولعلّه شعر بذلك هو أيضاً، فقام بالابتعاد عنها.

ووجدت نفسها ترفع أهدابها الثقيلة لتتفحص تقاسيم وجهه. كانت تعابيره ساخرة وباردة وفي عينيه الخضراوين لمسة احتقار. فصعقت وقد أدركت أنه تعمد أن يثيرها فيما حافظ على برودة أعصابه. وفيما هي تستعيد أنفاسها، كانت النظرة قد اختفت ليحل محلها تعبيره العادي الذي ينطوي على قدرٍ من التهكم. وفيما هو يبتعد، تساءلت آنا بحيرة: أحقاً

رأت ما ظنت أنها رأته؟ فهو طبعاً لم يلقِ إليها بهذه النظرة حين عانقها في الحديقة. لكن شتّان ما بين عناقه ذاك والآن.

ففي الحديقة، كان في عناقه شغفٌ وعفوية شعرت بهما أيضاً. أما الآن، ففي عناقه احتساب ودراسة وكأنه يريد أن يبرهن شيئاً ما.

كان في نبرته شعور بالضيق وهو يقول: «والآن من الأفضل أن نباشر العمل، إذا كنا ننوي أن ننتهي من تزيين الشجرة قبل تناول الطعام».

نهضت وهي تحاول الحفاظ على توازنها، ومضت تخرج الكريات الملونة من الصندوق. بقيا لمدةٍ يعملان بصمت وهما يعلقان مجموعةً من الحلى والزينة على الأغصان الخضراء الشائكة.

مضى الصمت ثقيلاً، مثيراً للأعصاب، وراحت آنا تفكّر في ما تقوله حين علق جيدون: «لطالما كنا نملك شجرة ميلادٍ في صغرنا في حجرة الأطفال. وكنا دائماً نزينها عشية الميلاد».

اغتنمت الفرصة وسألته: «كم طفلاً كنتم؟».

ـ أنا وأختي مارسيا التي تكبرني بستة أعوام وجاكلين التي تصغرني بعام. هذه الشجرة تعيد إليّ بعض الذكريات السعيدة.

ـ ألم تكن طفولتك سعيدة؟

ـ بلى، حتى سنّ العاشرة، ثم ماتت أمّي.

ـ آه، أنا آسفة.

وفيما هي تتكلم، لاحظت كم تبدو عباراتها غير مناسبة. ثم تذكّرت خسارتها، وأضافت: «وأستنتج أن الأمور لم تعد إلى سابق عهدها؟».

ـ ليس بالنسبة إلى أيّ منا. فقد انحرفت مارسيا التي كانت الأكثر تأثراً لموتها. وفي السادسة عشر من عمرها، اكتشفت أنها حاملٌ. فاستشاط والدي المنافق غضباً، وأحال حياتها جحيماً، حتى هربت وتزوجت من والد ابنها. وكانت غلطةً كبيرةً، فقد كان الصبي الذي يماثلها سناً فاشلاً للغاية. وقبل أن يولد طفلهما، أرسل إلى السّجن عقوبةً على السرقة. ولم

تستطع مارسيا أن تدفع إيجار شقتهما، وهدّدت بالطرد. فدفعها اليأس إلى العودة إلى المنزل، وطلب المساعدة من أبي. فقال لها إنها ارتكبت خطأً وإن عليها أن تتحمّل عاقبته الوخيمة. في ذلك الوقت، كنت أبلغ من العمر خمس عشرة سنةً. فهددته بأنني سأغادر ما إن أكبر إلى غير رجعة، ولعلّه ظن أنني لا أقصد ذلك، أو ربّما لم يهتم، وأيّاً كان، فقد قام هذا المحسن المحبّ واللطيف بطرد ابنته وحفيده. . .

ـ لكنك كنت تعني كلامك؟

ـ نعم عنيته. ومع أنني لم أرغب في ترك أختي الصغرى، ومع أنني أحب المانور، فقد حزمت أمتعتي ورحلت مع بركات جاكلين التي ما إن بلغت سنّ الرشد حتى حذت حذوي. ولأنها كانت المفضلة في قلب أبي، أمدّها بالمال حتى أنهت تعليمها الجامعي.

ـ وأنتَ، كيف تدبرت أمرك؟

ـ كنت أعمل في المساء وفي عطلة نهاية الأسبوع حتى أعيل نفسي بانتظار تخرجي.

ـ وبعد ذلك سافرت؟

ـ نعم، وأمضيت بعض السنين أعمل حول العالم، حتى استقرّيت في كاليفورنيا.

ـ ولم تعد إلى المنزل قط؟

ـ قبل سنةٍ تقريباً، عدت إلى لندن في عدة رحلات عملٍ. ولكن إن كنت تقصدين هارتينغتون مانور بالمنزل، فالجواب هو لا. لمّ أزر المنزل طالما كان أبي حيّاً. وكانت المرة التي قصدته فيها للمرة الأولى في السنة المنصرمة، عند جنازته.

تنهدت آنا، فلا شك في أن السير آين كان رجلاً صعب المراس. لكن المؤسف أنه لم يتسنَ للأب وابنه فرصةٌ للتصالح مرةً أخرى.

وكأن جيدون كان يقرأ أفكارها، فقد تابع: «كان في إمكان الأمور أن

تأخذ مجرىً آخر، لكن حين اكتشفت ماري موريسون خطورة مرضه، وحاولت إبلاغي وجاكي، كان الأوان قد فات».

ـ إذاً، لم يرَ ابنتيه أيضاً؟

أجاب بصراحة: «لا. فجاكي تزوجّت من أستاذٍ، ثم سافرا إلى الخارج ليلقي سلسلة محاضرات».

ـ وماذا عن مارسيا؟

هزّ جيدون رأسه: «توفيت وزوجها في حادث سيارة قبل عشر سنين. ولأعطي أبي حقه، أقرّ بأنه أعطى حفيده منزلاً بعد موتها، فتركه يعيش معه حتى شبّ. ولكن حين رسب ابن أختي في سنته الجامعية الأولى، رماه الرجل العجوز خارجاً».

أوشكت آنا أن تسأله عن مصير ابن أخته حين صرف النظر عن الموضوع وقال فجأة:

ـ حسناً، يكفينا حديثاً عن المآسي العائلية اليوم. والآن، أتظنين أننا بحاجةٍ إلى المزيد من الشرائط؟

فتراجعت إلى الوراء وأمالت رأسها وهي تنظر إلى الشجرة بتقويم: «لا، لا أظن ذلك».

ناولها الدمية وهو يقول: «إذاً، لا يبقى إلا نعلقّ جنيتنا البدينة في الأعلى. وبما أنني أشعر بالشهامة، فسأسلمك شرف وضعها».

أجابت بشك: «لا أظن أن بإمكاني أن أبلغ القمة».

ـ ما من مشكلة.

وقبل أن تعترض، وضع يديه على خصرها الرشيق، ومن دون أي جهدٍ يذكر، حملها ثمانية عشر إنشاً عن الأرض. فأحستّ بنفسها تترنح، وبقلبها يرتمي بين أضلعها. وما كان منها إلا أن سارعت بوضع الجنية مكانها، ثم هتفت وقد خُطفت منها الأنفاس: «يمكنك أن تنزلني الآن».

وفيما كان ينزلها، مرت يداه على كتفيها بهدوء، فاقشعر جسدها

وأدركت أنه يشعر بخفقات قلبها خفقةً خفقةً. ومع أن قدميها لامستا الأرض، لم يتركها مباشرةً بل جذبها إليه حتى أحست بدفء جسده وعضلاته المفتولة. أفلتت منها همسة قصيرة لم تعرف ما إذا كانت شعوراً بالسعادة أم احتجاجاً. وقبل أن تمضي عدة ثوانٍ، وجدت نفسها حرة طليقة. وانتهى المطاف بها إلى اللجوء لأقرب كرسي لأنها شعرت بأن رجليها لا تقويان على حملها.

أما هو، فسأل برقة: «هل استمتعت بذلك؟».

حين أجابته بالصمت، تابع: «لطالما اعتبرت أن تزيين شجرة الميلاد عملٌ مسلٍّ».

ـ آه! نعم...

ولمّا اختلست إليه النظر، لمحت وميضاً ماكراً في عينيه الخضراوين: «وما زال في جعبتي وسائل تسليةٍ كثيرة، أعدك».

عرفت أنه يتعمد أن يضايقها. فأخذت نفساً عميقاً وحاولت أن تستجمع أعصابها، ثم سألته بما وسعها من الثبات: «مثل ماذا؟».

راح يتلو لائحته: «البلح والتين والمكسرات بقشرتها، البالونات والقبعات الورقية، العملة المعدنية المخبأة في حلوى الميلاد... وبالإضافة إلى كل هذا، عندي هديةٌ لك».

فتساءلت بحذر: «أي نوع من الهدايا؟».

ـ من الأفضل أن تنتظري وتكتشفي ذلك، وإلا أفسدت المفاجأة.

ـ لست متأكدة من أنني أحب المفاجآت.

سارع إلى طمأنتها: «ولكنك ستحبين مفاجأتي... والآن ما رأيك في شرابٍ قبل العشاء؟».

وحين لم تبدِ اعتراضاً، ملأ كوبين بعصير التوت، ثم سلمها واحداً قبل أن يتخذ الكرسي المقابل لها مقعداً. بقيا لمدّة جالسين أمام النار، يرتشفان الشراب بسكون. وبعد قليل ألقى نظرةً على ساعته وعلّق:

ـ بالحديث عن العشاء، أرجو أن يكون جوعك قد دفعك إلى تجهيزه بالشكل المطلوب.

طمأنته وهي مصممة على تجاهل أي محاولة لخداعها: «بالطبع».

ـ إذن، سأضع اللمسات النهائية.

ـ وماذا تريد مني أن أفعل؟

ـ لقد نفذت الجزء المتوجب عليك. وما عليك الآن إلا أن تجلسي هنا وتكوني جميلةً.

ـ سيكون المنظر أجمل لو رتبت المائدة مثلاً.

هزّ رأسه قائلاً: «ما من ضرورة. سأقوم بذلك، فيما...».

وفجأةً، قطع كلامه رنين هاتفٍ خلويٍّ فبدا مرتبكاً لوهلة، قبل أن يستعيد قناعه الخالي من أيّ تعبير. فتوجهت إليه عيناها القاتمتان باتهام:

ـ حين سألتك عن هاتفٍ خلويٍّ، قلت لي إنك نسيته في السيارة.

هزّ كتفيه العريضتين استهجاناً: «لا بد أنه كان في معطفي رغم كل شيء».

وببرودةٍ وهدوءٍ تامّين، توجّه إلى معطفه واستخرج الهاتف من جيبه.

ـ آلو؟... آه، لا بأس. فبعد هذا الثلج، أتوقعك فعلاً.. حسناً.. أنا سعيدٌ لسماع هذا.. لا، ليس تماماً... في الواقع، علينا أن ننتظر تقلبات الطقس... لا، لا داعي للقلق بشأن هذا... شكراً، ولك أيضاً. إلى اللقاء. حذار المصاعب.

ثم أعاد الهاتف إلى معطفه، ومن دون أي شرح، عاد يحضّر الوجبة، تاركاً آنّا لتساؤلاتها عن هوية هذا المتصل المجهول. لا شك في أنه ممن أرادوا أن يزوروا المانور، قبل أن يعيقهم الثلج عن ذلك.

لقد تكلم مع المتحدث بمحبة، وكأن المتحدثة امرأة ما. أيتعلق الأمر بحبيبته؟ أكانت تريد أن تلحق به إلى هنا؟ لكن كلام جيدون في الليلة الماضية دلّ على أنه كان يتوقّع قضاء هذا العيد في انكلترا وحده وللمرة

الأولى. وإن كان يأمل أن توافيه امرأةٌ، فلماذا طلب منها البقاء؟ لا يبدو ذلك منطقياً.

ـ لو أعرف في ماذا تفكّرين!

ونظرت إلى الأعلى، لتجد المائدة جاهزة، وجيدون ينتظرها ليسحب لها كرسياً ويسكب الطعام. وفيما هي توافيه، حاولت، بقدر الإمكان، أن تبدو غير مبالية وهي تقول: «ألم تسمع يوماً بالغرور؟».

كان منظر الطاولة يوحي بالعيد تماماً. فتألقت شمعةٌ ذهبية عند كل طرفٍ منها، وفيما كان يتناولان طعامهما بتأنٍ، راح يسليها بنوادر عن أسفاره، وعن حياته في كاليفورنيا. وقد تفاجأت أنه لم يذكر من نساء إلا مدبرة منزله التي وصفها كأم حنون.

وفي النهاية، لم تستطعْ أن تمنع نفسها من السؤال: «أما من حبيبةٍ؟».

رفع حاجبه، ورمقها بنظرةٍ ضايقتها حتى بعثت فيها التورد. فأشارت، وهي تحاول جاهدة ألا تبدو دفاعية: «لقد سألتني السؤال نفسه».

أجاب بكسل، وهو يمد يده ليملأ فنجانيهما بالقهوة.

ـ لقد فعلت. ولكن إجابتي تماثل إجابتك. لا. كان لي عشيقاتٌ طبعاً، ولكني لطالما تجنبت المساكنة. فهي تتطلب الكثير من التسامح، إلا إن كان الشخصان مغرمين فعلاً ببعضهما بعضاً.

قرّرت أن تتوقف عند هذا الحدّ حين تابع: «كنت مستعداً للعيش مع امرأةٍ لمدةٍ وحسب. وفي الواقع، كنّا لنتزوج لو أنها حرّةٌ...».

جاهدت آنا لتتكيّف مع ألم حاد، انغرز في القلب. أما هو فواصل كلامه: «ومع أن إيڤا كانت منفصلة عن زوجها لسنةٍ حين التقيت بها، إلا أنها كاثوليكية، ولا تؤمن بالطلاق».

وعاد إلى صمته.

وفيما هي تنهي قهوتها، راحت تراقب وجهه المهموم، وتتساءل عما

إذا كان يفكّر في المرأة الأخرى. وحين فرغت من فنجانها، نهض وسألها بأدب: «أتريدين المزيد من القهوة؟».

أجابته بأدبٍ مماثل: «لا، شكراً».

ثم منحته ابتسامةً مشرقة، وقد عقدت العزم على طرد شبح إيڤا من خيالها: «كانت الوجبة بكاملها لذيذة. ولقد استمتعت بها حقاً».

أجاب ببساطة: «لا نهدف إلا لإسعادك. هلاّ انتقلنا إلى مقاعد أكثر راحةً؟».

قامت من مكانها، فرافقها وذراعه حول كتفيها. لكن هذه اللمسة الخفيفة ضاعفت من خفقات قلبها.

وبعد أن مضى صمتٌ قصير مبهم، تحرّك جيدون وكأنه نوى أن ينفذ مخططاته، ثم سألها: «والآن، آمل أنك مستعدة لمفاجآتك؟».

ومع أنه تكلم برهافة إلا أن نبرته أوحت أنه يخفي هدفاً معيناً. ورغم ذلك، ظلّ الحذر يلازمها. ترى، إلام يرمي؟ أهي لعبةٌ أخرى خطّط لها؟ لكنّ حاستها السادسة أنبأتها أن دوافعه غاية في الجدية، وأنه لا يهدف إلى لعبة. في هذا الوقت، كان يراقب صراع الانفعالات على وجهها، قبل أن تجيب.

ـ أنا في أتم استعدادي.

ـ لا تبدين في غاية الحماس.

ـ كما قلت مسبقاً، لا أحب المفاجآت.

ـ وكما أجبتك، أظن أنك ستحبين هذه.

وحين لم تجب، سألها برقة: «ألن تسأليني عن مضمونها؟».

استغربت لأنها لم ترغب في معرفة ذلك. ثم استجمعت شجاعتها وقد أحالها القلق فظةً: «حسناً، ما مضمونها؟».

فبدا مستمتعاً بممانعتها، ثم توجه إلى المكتب، ومن أحد الأدراج، استخرج ظرفاً واسعاً من الورق السميك.

ـ ها هي.

ثم سلمها إليها وعاد إلى مقعده، وهو ينتظر أن تفتح الظرف.

وكمن يتوقّع فخاً ما، فتحته بحذر واستخرجت ورقةً واحدة، ثم راحت تحدّق فيها وقد انعقد لسانها.

كانت رسالة غرام، يعلن فيها المرسل عن حبّه بكلماتٍ رقيقةٍ تكشف عن شغفٍ وعواطف مؤثرة، وهي موجهة إلى اللايدي إليانور في أيلول (سبتمبر) ١٦٢١، ومكتوبة بخط جميل وواضح من القرن السابع عشر. أما الإمضاء فيحمل إسم «مايكل سن» فيما الأحرف ممتدةٌ ومائلةٌ إلى الأمام.

رفعت بصرها، وتمتمت بصوتٍ لا يكاد يفوق الهمس: «إنها رائعةٌ فعلاً».

ـ ظننت أنك ستحبينها. وكما قلت مسبقاً، ليست لي خبرة في المخطوطات، لكنّ هذه بدت مناسبةً تماماً لإنسانٍ بمثل اهتماماتك.

اتسعت عيناها واحتجّت قائلة: «أنت لا تقصد أن أحتفظ بها؟».

ـ بالطبع أقصد ذلك.

ـ شكراً، لكنني لا أستطيع.

ـ ولمَ لا؟

ـ لأنني أكاد أكون متأكدة أنها أصلية. . .

قاطعها: «أخبريني لماذا تعتقدين أنها أصلية؟».

ـ يعود الورق والحبر إلى تلك الحقبة بالذات. ويبدو لي الإمضاء، بأحرفه الطويلة المائلة، أصلياً. . .

ـ إذاً، لقد رأيت مثل هذا الإمضاء من قبل؟

ـ نعم، فوق إحدى المخطوطات الأخرى التي أنقذت. وهو مميزٌ جداً. . .

ـ وإذا كان أصلياً؟

- إذاً، أكاد أجزم أن مايكل سولهارست هو من كتب الرسالة، وهو جنديٌ وشاعرٌ عاصر دون وشيكسبير.

وحين لم يقدم جيدون إلاّ على الانتظار، أضافت: «وهي تساوي مبلغاً طائلاً من المال. أما إن كانت نسخةً، ولا أعتقد أنها كذلك، فهي ما تزال تثمن بمبلغٍ لا بأس به».

تألقت في عينيه الخضراوين نظرةٌ لم تفهمها، ثم أعلن بلا مبالاة: «ليست بنسخةٍ».

- أتعلم مصدرها؟

- نعم.

- إن كانت واحدةً من مجموعة السير آين. . .

- ليست كذلك. إنها تنتمي إلى محفوظات العائلة. فقد أرسلت إلى اللايدي إلينور سترانج.

حبست آنا أنفاسها وومضت عيناها، ثم سألته: «أيمكنك أن تخبرني ماذا حدث؟ أبادلته الحبّ؟».

- نعم، يبدو أنها فعلت. لكن، رغم التماساتها، رفض والدها زواجهما. فقد كان يفكّر بزواجٍ يدرّ الكثير من المال، لذا أراد أن يزوّج ابنته الكبرى إلى ابن عمّها شارل. لكن إليانور كانت صلبة الإرادة. وعلى الرغم من أنها سجنت في غرفتها، لا تأكل إلا الخبز طعاماً، ولا ترتوي إلا بالماء شراباً، فقد رفضت أن تتزوج من شارل، لا بل فضّلت أن تموت كخادمةٍ عجوز. وفي النهاية، هذا ما حصل.

وتنهدت آنا.

فعلق جيدون: «ألاحظ أنك كنت ترغبين في نهايةٍ أكثر رومانسية».

- ولكنها، بطريقةٍ ما، رومانسية.

- الحب الذي لا يُنسى؟ نعم، لعلك محقة. . . والآن، بعد أن أخبرتك عن إليانور، لِمَ لا تخبريني عن مايكل سولهارست؟

- عدا عن أنه شاعر الماورائيات، لم تصلنا من أشعاره إلا بعض الرسائل. فلم تشتهر حياته الشخصية، والكثيرون يشكّون في تاريخ ميلاده. لكنه مات في العام ١٦٣٣. وإن صحّ قول المؤرخين، فهو لم يتزوج قط.

فقال بسخرية: «إذاً، وفاءً للرومانسية، سنعتبر أنه بقي مخلصاً لإليانور».

أعادت الرسالة إلى ظرفها بعناية، ثم سلمتها إلى جيدون: «أشكرك. أشعر بالفخر لمجرّد رؤيتها».

سألها: «هل أنت متأكدة من أنك لا تودّين الاحتفاظ بها؟».

أجابت بصدق: «أود ذلك فعلاً، لكنني لا أستطيع».

- يمكنك أن تجعليها بدايةً لمجموعةٍ جديدة، حين تفتحين محلاً آخر.

قاطعته بعنف: «لو كانت ملكي، لما فكّرت في بيعها أبداً».

بدا عليه ذهولٌ صادق:

- كنت أعتقد أن الفكرة بأكملها تنص على البيع وتحقيق الأرباح.

فأقرّت: «نعم، بالطبع. لكن، أخشى أنني جامعة تحفٍ في أعماق القلب. فأحياناً، يصعب عليّ أن أفترق عن تحفةٍ مميزة، أرغب في المحافظة عليها بشدة».

فأسند ظهره إلى الكرسي، ومدّ رجليه الطويلتين إلى النار، ثم سألها:

- مثل ماذا؟

- في النهاية، اضطررت إلى بيع رسالةٍ جميلةٍ جداً، كتبها جون دون إلى أحد أبناء أبرشيته.

لزم جيدون الصمت. لكن عندما رفعت رأسها، ألفت وجهه حاداً وثابتاً، ومع أن النيران كانت تنعكس في عينيه الخضراوين، إلا أنهما كانتا

جليديتين. ففاجأتها هذه النظرة، ووجدت نفسها تحدق فيه: «ما بالك؟ أمن خطب؟».

ـ وماذا يمكن أن يكون هناك؟

أجابت بضعف: «لست أدري. لكنك تبدو. . . غاضباً جداً».

ومن دون أي تعليق، اكتفى بسؤالٍ: «وماذا حدث لبقية بضاعتك؟».

أجابت ببساطة: «لقد أقدم وكيل جامعٍ خاص على شراء المجموعة بأكملها».

ـ وهل نلتِ الثمن الذي تستحقه؟

هزّت رأسها نفياً: «كان يعلم أنني لا أملك خياراتٍ واسعةً، فاستغل الفرصة. وفي النهاية، اضطررت إلى البيع بخسارةٍ باهظة».

ثم رفعت رأسها وأضافت: «لكنني تمكنت من دفع قرض المصرف وتولّي أمر ديوني المتبقية».

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟ أبعد سنةٍ من العمل والجهد، تستسلمين من غير أن تنالي قرشاً؟

ردّت بهدوء: «بل لم أنل ما هو أقل من القرش. فقد اختفى رأس المال الضئيل الذي بدأت به أيضاً».

ظلّ جيدون يحدّق في النار، من غير أن ينبس ببنت شفة. كانت ملامح وجهه حادّة، وقسماته غامضةً لا تكشف عن شيء.

حين طالت سحابة الصمت حتى باتت تهدّد بكآبتها، حاولت آنا تبديد هذا الجوّ بعزم مشرق: «لكن كل ذلك بات في طيات الماضي، الماضي الذي فرغت منه تماماً، واليوم هو يوم الميلاد، وقد وعدتني بأننا سنمرح كثيراً».

نظر إليها: «نعم، لقد وعدت».

ثم وقف على رجليه، ورسالة مايكل سولهارست ما تزال في يده، وتمتم: «لكن من الأفضل أن أضع هذه جانباً أولاً. . . إلاّ إذا غيرت

رأيك، ورغبت في الاحتفاظ بها».

هزّت رأسها وأقرّت بصدق: «أودّ ذلك فعلاً، لكنني لا أستطيع».

أرجع الرسالة بعنايةٍ إلى درج المكتب ثم استبدل الحدّة على وجهه بابتسامةٍ وقال: «والآن، فليبدأ المرح!».

فبادلته الابتسام، وقد فرحت بنجاحها البسيط، ولكن الوميض في عينيه دفعها إلى التساؤل عن المصير الذي ستقودهما إليه ملاحظتها المتهورة.

***

٧ ـ سحر ليلةٍ واحدة

وكأنّه كان يقرأ أفكارها، فقد رسم على شفتيه ابتسامةً عريضةً، قبل أن يقترح عليها: «ما رأيك لو بدأنا المرح بخطوة أعتبرها أساسيةً في ختام وجبة عيد الميلاد؟».

سألته: «وما هي؟».

ـ جرّةٌ من الزنجبيل السكري.

ثم رفع حاجبه باتجاهها وسألها: «أتفاجأت؟».

اتسعت عيناها وهتفت: «بل أنا مصعوقة!».

ـ أتظنين أن باستطاعتك تحمّل كل الإثارة؟

طمأنته: «سأبذل قصارى جهدي».

أخرج من الخزانة مرطباناً بلون البن والقشدة، تزينه صور تنين. ثم أزال الغطاء وسألها: «آمل أن تكوني ممن يحبون الزنجبيل السكري؟».

ـ بل أعشقه.

ـ هذا جيد. فقد اكتشفت منذ صغري أنني لا يمكن أن أحبّ امرأةً غير مولعة بالزنجبيل السكّري.

ثم تقدم منها والملعقة في يده، وانتقى قطعةً حلوةً ذهبية من المربى قبل أن يأمرها: «افتحي فمك واسعاً».

وحين استجابت لطلبه، أدخل الملعقة إلى فمها، فسالت قطراتٌ من

السائل على شفتها السفلى.

فتقدم نحوها، ومسح بإصبعه ما سال على ثغرها، وقضى على رباطة جأشها، قبل أن يخلق جواً من التوتّر المفاجىء.

اللعنة عليه!

تدفقت الأفكار إليها بيأس، واقتنعت أنه خطّط للأمر إيقاعاً بها.

ليتها تستطيع فقط أن تحصّن نفسها ضدّ جاذبيته. لكن هيهات أن توقف تيّار المشاعر التي يولدها فيها بمجرّد لمسة. أمّا هو، فظلّ محتفظاً بنبرته الساخرة هي هي، وأخذ يراقبها وهي تحاول أن تستعيد رباطة جأشها.

وبعد أن تناول قطعةً هو الآخر، أرجع المرطبان وسألها: «أجاهزة للمرحلة التالية من الإثارة؟».

ومن دون أن ينتظر الرد، توجّه إلى المكتب وأحضر علبةً مستطيلةً من السلوفان، ثم جلس على المقعد المقابل لها وناولها إيّاه فنظرت إلى الغطاء ورأت حبيبين من العصر الفيكتوري، تحيط بهما عصافير الحب. أما من الداخل، فوقعت على نوعين من المفرقعات الغالية الثمن، أحدهما أخضر والآخر ذهبي، وقد كتب على الأول «هو»، وعلى الثاني «هي».

فقال جيدون: «تفضّلي أولاً».

وكما الأطفال الكبار، أمسك كلٌّ منهما بطرفٍ وشدّ فدوّى صوت عالٍ.

ثم انحنت وانتقت من الصندوق تاجاً وضعته على رأسها، فإذا به واسعٌ جداً، يغطي جبينها كعصابةٍ لمّاعة. فأوشكت على نزعه حين أعلن جيدون: «يبدو رائعاً. اتركيه كما هو».

علقت بجفافٍ: «يمكنني أن أتصور كيف أبدو».

رفع حاجبه بتساؤل: «وكيف تبدين؟».

ـ كأحد الهيبّين!

- بهذه الخدود، تبدين كعروس الهياواثا.

كان في عينيه المتأملتين نظرةٌ، دفعتها إلى الإشاحة بوجهها نحو الصندوق. وبعد أن نظرت إلى ما بداخله، أخذت منه شيئاً ثم ناولته إياه بمرح: «ميلاد مجيد».

ففتحه كما لو كانا زوجاً وزوجته، وسرعان ما هتف: «أزرارٌ معدنية... شكراً حبيبتي».

ثم تقدم إلى الأمام، وعانقها برقةٍ، مضاعفاً من حدة التوتر بينهما.

- سألبس قميصاً غداً، وأعرضها عليك.

وتسمرت مكانها، وقد صعقها كيف ناداها وعانقها. وبعد قليل انتقى المفرقعة الثانية وسألها: «جاهزة؟».

ومرةً أخرى، أمسك كلٌّ منهما بطرفٍ وشده إليه.

- والآن، إلى تاجي...

اختار تاجاً ثبته على رأسه، فلاءم شعره الأشقر الكثيف.

- ما رأيك؟

حوّلت وجهها إليه، وتأملته قليلاً قبل أن تجيب بوقاحةٍ: «تبدو وكأنك تنتمي إلى القرون الوسطى، وأساطيرها السحرية، كحاكم كاميلون مثلاً».

- حسناً، إن كنت الملك آرثر، فعليك أن تستبدلي عصابتك بتاجٍ وتلعبي دور جينيفر، سيدة ليونيس.

وحين لم تبدر عنها أي إشارة، تابع: «لست ملماً بالقصص تماماً، ولكن، ألم تتزوج جينيفر التي أحبت لانسلوت من آرثر وتصبح ملكة؟».

وراح يراقبها حتى استحال لون خديها أحمر وردياً. ثم حوّل انتباهه إلى الصندوق. وبعد أن رفع الغطاء، هتف: «يا للعجب! يبدو جيداً بما يكفي ليكون قطعةً أصلية».

ثم أمسك بيدها اليسرى، ودسّ خاتماً لمّاعاً في إصبعها الثالث، ثم

ابتسم لعينيها:

- والآن، يمكن أن نعتبر أنفسنا مخطوبين.

جفّ حلقها.

- بما أنك ذكرت حاجتك إلى الالتزام، أرى الفرصة مناسبةً تماماً.

بادرت إلى القول بضعف: «لا أفهم ماذا تعني...».

- أليس الخاتم تمهيداً لابدّ منه للحب؟

- ولكننا لسنا حبيبين طبعاً.

قاطعها بتسامح: «بل نحن كذلك. لا يمكن أن نبدأ بتعديل أساطير الملك آرثر».

إذاً، فهي مجّرد لعبةٍ يلعبها ليقضي على رباطة جأشها وليسلّي نفسه.

ما زالت أناملها بين يديه، فراقب تأثرها لبرهةٍ قبل أن يلاحظ: «إن أصابعك رشيقةٌ لكنها قويةٌ. والخاتم يناسبها تماماً».

ومن دون أن يغيّر نبرته، أضاف: «أكان خاتمُ خطوبتك بماسةٍ واحدةٍ كهذا؟».

- لم أحصل على خاتم خطوبةٍ من قبل، لا خاتم أصلي ولا مزيف.

اشتدت عضلات وجهه لبرهة، وكأن الغضب اجتاحه، لكنه ما لبث أن هزّ كتفيه وأردف بسخرية: «صحيح، والآن حان دورك».

ليتها لا تشعر بالارتباك! ثم سألته: «دوري لماذا؟».

- ظننت أنك تودين أن تعانقيني على هديتي، كما فعلتُ في السابق.

كان هذا آخر ما ترغب فيه، لكنها تغاضت عن حدة التوتر التي أصابتها، وحاولت ألاّ تضخّم المسألة برفضها، فتقدمت إليه، وعانقته عناقاً خاطفاً.

علق بسخرية: «كم أنت باردة ومحتشمة. أهذا أفضل ما تستطيعينه؟».

- لقد سألتني أن أعانقك وفعلت.

ـ لكنني أستطيع أن أجزم أن بإمكانك إظهار المزيد من الحماس لو حاولت.

أعلمته وقد شعرت بالانزعاج: «ليس لدي أي نيةٍ في المحاولة».

ـ هل تخافين أن يفلت زمام الأمور من يدك؟

كان ذلك صحيحاً، لكنها رفضت أن تقرّه، وأجابت: «أبداً».

حاولت أن تبدي ما في وسعها من الهدوء واللامبالاة، ثم أضافت:

ـ بل أنا أشعر بالتعب. وفي الواقع، أود الخلود إلى النوم.

ثم انتزعت تاجها، وكأنما بحركتها هذه تعلن نهاية اللعبة. أما هو، فراح يراقبها بدقة، ثم تبعها قائلاً: «أتهربين؟».

كذبت: «طبعاً لا. لكن الوقت متأخرٌ جداً، ليس إلاّ».

فاختلس النظر إلى ساعته وهتف: «يا لغبائي! أنت على حق. إنها الحادية عشرة إلا ربعاً».

تجاهلت تهكمه وسألته: «أتسمح لي بأحد المصباحين؟».

ـ طبعاً.

ـ إذاً عمتَ مساءً.

ومن دون أن يجيب، وقف على قدميه، وتمدّد بكسل، ثم نزع تاجه وأمسك بالمصباح الثاني فسألته بحدة: «ماذا تفعل؟».

ـ فكّرت في أن أرافقك إلى الأعلى.

ـ لا!

ثم ابتلعت ريقها وأردفت بحماس: «أرجوك، لا تتعب نفسك».

ـ ما من تعبٍ. وعلى أيّ حال، فقد كنت صاعداً أيضاً.

حاولت أن تكتم فزعها وهي تذكّره: «ولكنك قلت مسبقاً إنك ستنام أمام النار».

وافقها: «هذا صحيح».

ـ إذاً ما من داعي لتصعد.

ـ بل أخشى أنك مخطئة. فأولاً، إذا كنت سأنام في الأسفل، فسأحتاج إلى بعض الملاءات. كما أودّ أن أغسل أسناني وأستحمّ.

كانت آنا ترتجف لفكرة الاستحمام بمياهٍ جليدية، حين واصل كلامه:

ـ وبالحديث عن ذلك، أملك أخباراً حسنة عن الحمام.

ـ أتعني أنني لست مضطرةً إلى الاستحمام؟

ضحك وهو يقول: «ما إن تصلك أخباري، حتى تبدلين رأيك».

سألته والأمل يساورها: «أأعتبر أن المولد قد عاد إلى الحياة؟».

ـ ليست الأخبار جيدة إلى هذا الحد.

ـ لا تبقيني مترقبة.

ـ لعل صدمة المياه الباردة في الصباح، هي ما دفعت عقلي إلى العمل، فقد تذكّرت أن في الحمام الملحق بحجرة الأطفال سخاناً يعمل على الغاز. فألقيتُ عليه نظرةً، حين ذهبت لأبحث عن أدوات الزينة. وبدا لي أنه ما زال يعمل، فشغلته. وحين تأكّدت أنه على ما يرام، نقلت كل مستلزمات الحمام إلى هناك. قد يكون قديم الطراز، لكنه مليء بالمياه الساخنة.

هتفت: «هذا رائع!».

ابتسم حين شعر بتوهجها ثم قال: «وإذا كنتِ لن تمضي فيه أكثر من عشر دقائق، فسأسمح لك بالدور الأول».

ـ أرشدني إليه.

ـ إنه في نهاية الرواق حيث تقع غرفتك. لذا، لن تكون الرحلة شاقةً بالنسبة لك.

وأفضى بهما الحال إلى أخذ المصباحين والتوجه من الرواق، إلى السلالم. ولكن ما إن ابتعدا عن المطبخ الدافىء حتى داهمهما الهواء البارد، وبدأت ترتجف من الصقيع حين وصلا إلى نهاية الرواق.

أعلن جيدون بمرح: «هذا هو. والآن سأتركك... إلا إن أردت

www.elromancia.com

توفير المياه الساخنة، ودعوتي إلى مشاركتك الاستحمام، في سبيل الحصول على المزيد من الإثارة».

ـ لا، لا أريد.

كان العنف في صوتها يفوق الأدب، فتركها وهو يقهقه عالياً. فانحبست أنفاسها وتسارع خفقان قلبها.

وعدا عن المياه الحارة، بثّ جهاز التسخين الدفء في الهواء. ولولا خوفها من أن يعود جيدون قبل أن تنتهي من الاستحمام بعد، لأمضت دقائق إضافية تستمتع به. وهكذا، استحمّت بسرعة ثم لبست ثوب نومها، إضافةً إلى رداءٍ فوقه، وجمعت أغراضها، وأمسكت المصباح، وتوجهت إلى غرفتها. وهناك وجدت الجو دافئاً أيضاً بسبب المدفأة المشتعلة في الغرفة. وما إن وضعتِ المصباح على الرف، حتى اكتشفت كوباً من الشوكولا الساخنة، يغطيه صحنٌ صغير. فجلست ترتشف فإذا طعمه يناسب ذوقها تماماً.

حين فرغت من الكوب، كرهت أن تخلد إلى النوم ومذاق الشوكولا في فمها. فتوجهت إلى الحمام لتغسل أسنانها مرّةً أخرى. وما إن عادت إلى غرفتها، حتى طالعها جيدون أمام المدفأة وهو يدير ظهره إلى النيران. فسألته: «لمَ لم تطرق الباب؟».

ـ هذا ما فعلته. لكن يبدو أنك لم تسمعيه، لأن الصنبور مفتوحٌ.

كان يرتدي رداءً ليلياً قصيراً من الحرير لا غير. وما زالت بضع قطراتٍ تبلّل شعره الأشقر، وما زالت عيناه الخضراوان تتألقان سحراً، حتى بدا جذاباً بشكل خطير.

رغم اضطرابها الظاهر، تمكنت من القول: «ماذا تفعل هنا؟ ماذا تريد؟».

وفيما عيناه لا تفارقان شفتيها، أجابها: «رغبت في أن أعانقك قبل النوم».

استعادت ذكرى عناقه في ذلك المساء، وصرخت: «لا، عليك ألا تفعل ذلك».

ـ آه! بل أظن أنه يجدر بي ذلك. فقد حلقت ذقني خصيصاً وأنا أدرك أن بشرتك الناعمة لا تحتمل لحيةً لم تحلق منذ مدة.

ثم رفع يدها إلى أن لامست ذقنه، وتمتم بإغواء: «تحسّسي، إنها ناعمة كما الحرير».

تاقت أناملها لإجابة الدعوة، وللانطلاق بحرية على وجهه، ولتفقد هذا الشق في ذقنه. لكنها قاومت هذه الرغبة، بطريقة لا تدري كنهها، ثم سحبت يدها وكأن النار لدغتها، وهتفت بغضب: «أرجو أن ترحل».

ـ أنت لا تقصدين ذلك.

ثم أمسك بكتفيها والابتسامة لا تفارق شفتيه، واقترب منها، حتى لامس وجهه الخدين منها

تغلغلت في أنفاسها رائحة الزيزفون والأرز من عطر ما بعد الحلاقة، وراحت تتوسّل: «أرجوك، جيدون، لا . . .».

لكنها كانت تعرف أن توسلها ميؤوسٌ منه. فاجتاحها الرعب وهربت منه، وهي تكاد تنتحب.

ـ لماذا لا تتركني وحدي؟ ماذا تريد مني؟

ابتسم بسخرية، وردّ: «أتريدين مني حقاً أن أجيب عن هذا؟».

تابع وهو يراقب التورد يتصاعد إلى وجهها: «لقد رغبت فيك منذ لحظة رأيتك، أيتها الساحرة المدهشة التي في عينيها لون الرماد. . .».

ثم قبض على مرفقيها وشدّها إليه. وكما المريض المخدّر، وجدت نفسها تحدّق في وجهه القاسي، وكأنها عاجزةٌ عن تحويل نظرها بعيداً. . انعكس نور المصباح على شعره اللماع، وأنار قسماته المنحوتة بجلاء، فطالعتها أهدابه السوداء الطويلة وأنفه القوي، وشفتاه المقوستان بحسّ عميق.

ـ ومع أنك تقاومين، أعرف أنك ترغبين فيّ أيضاً، كان الانجذاب ما بيننا مباشراً ومتبادلاً.

ناضلت لتحتج، وتخبره بخطئه، لكنها لم تنبس ببنت شفة، وعجزت عن إنكار الأحاسيس التي تعتمل في صدرها.

ولكن يجب ألا يكون على حق!

وجرجرت نفسها. ففي الأعماق هي إنسانة ضعيفة، لكنها لا تزال تحتفظ بكرامةٍ مكّنتها من هز رأسها: «لا».

ـ إذاً، فلنتبادل عناقاً أو اثنين، ونتمنى لبعضنا ليلةً سعيدة. وبعدئذٍ، نرى من على حق.

ـ لا، أرجوك، لا أريد...

كتم احتجاجها بوعدٍ: «لن أقدم على ما لا تريدين مني الإقدام عليه».

ثم انحنى نحوها، فاضطرت إلى إغلاق عينيها، مستسلمة لعناقه.

وأغدق عليها عناقاً لطيفاً، ناعماً، من دون أن يطالبها باستجابةٍ. وفي غمرة ذلك، راح يردد على مسامعها: «أنت امرأةٌ ساحرة... ما من امرأةٍ أخرى حرّكت أحاسيسي كما فعلت... ما إن رأيتك حتى وقعت أسيراً لسحرك. والآن ما من سبيل إلى الحرية مرةً أخرى، وها هو القدر يدفعني لأكون سجينك».

لم تتوقع أن يجذبها بالكلمات، لكنها بدت مجرّدةً من أي دفاع. أما هو، فبمهارةٍ متقنة وسهولةٍ مرعبة، استوطن عقلها وجسدها وباتَ سيّداً عليهما.

لقد حرّك مشاعرها وخطف منها أنفاسها فلم يعانقها أحدٌ بهذه الطريقة من قبل. وأن تتلقى مثل هذا العناق الحميم، بمثل هذا التقدير المتمعن، لأمر يبعث فيها شعوراً غريباً، شعور أيقظ كل عصبٍ في جسدها.

واضطربت أفكارها. فما كان منها إلا أن حاولت جاهدة لتتعلق بأي حبل نجاةٍ، علّها تستعيد السيطرة على نفسها، وتتوقف فهي لو تركته

يمضي في خطته، فستضيع حتماً.

راحت همسات التعقل هذه تعلو لتتردد في ذهنها. وانتهى بها المطاف إلى استجماع قوتها، سواء كانت النفسية أم الجسدية، ووضعت يدها على صدره وهي تحاول أن تدفعه بعيداً. ولكأنها كانت تحاول إزاحة جبلٍ، فتوسلت إليه.

ـ أرجوك، دعني.

لكن ذراعيه لم تزدادا إلا اشتداداً، لتسجناها بينهما: «لماذا؟».

ذكّرته بصوتٍ متشنج: «لقد أكدت أنك لن تقدم على ما لا أريد. وأنا لا أريد أن تتابع».

ـ سأتوقف، حين تستطيعين إقناعي أنك تريدين مني حقاً أن أتوقّف.

أصابتها قشعريرة، وراحت تتساءل كيف تقنعه بحق السماء، وهي عاجزة عن إقناع نفسها؟

ثم راح يعانقها ثانيةً، إنما باستبداد أكثر هذه المرة. وفي هذه اللحظات باتت عاجزةً عن تحرير نفسها من سيطرته على أحاسيسها، فخضعت لتأثير عناقه.

ولمّا أحس أنه ربح هذه المعركة القصيرة، رفع وجهه وراح يراقب وجهها.

تسمرت يداه وتمتم: «آنا، انظري إليّ».

حين ارتفعت أهدابها الثقيلة، واصطدمت العينان الخضراوان بالعينين القاتمتين، سألها: «أتريدين مني أن أتوقّف؟».

كان جزءٌ منها يدرك تماماً أنها لو ردت بالإيجاب، وعنت ذلك، فسينفذ طلبها. لكنها على مرّ السنين، كتمت هذه الحاجة الطبيعية إلى رجلٍ يحبها وتحبه، وبنت سوراً دفاعياً بارداً، لتختبىء خلفه، بانتظار الرجُل المناسب. ولردح قصير من الزّمن، توهمت أن دايفيد هو هذا الرجل. لكنها الآن متأكدةً بما لا يدع مجالاً للشك أنها لم تكن تنتظر إلا

جيدون.

ارتدّت يداه إلى بشرة ذراعيها الرقيقة، فهزّها بخفّة وهو يقول: «أجيبيني، آنا».

وحينما أمعن النظر في وجهها رأى ملامحها المذعورة.

ـ لست متأكدة أنني أستطيع الإجابة.

ـ وماذا تقصدين بقولك؟ ولمَ هذاالخوف على وجهك فليست هذه المرة الأولى.

ـ بل هي كذلك.

ـ ألم يسبق أن كنت مع رجل يوماً؟

ـ لا. إنها المرة الأولى.

كانت تنظر إلى ملامح وجهه التي انقلبت رأساً على عقب فلم تفهم... إنه يتراجع... لقد أرادته لأنه يمثل كل ما تاقت إليه، وهو الرجل الذي تحب. ولكنه على ما يبدو لا يحبها.

***

٨ ـ ساحرةٌ سرقتني

مكث لعدة دقائق واقفاً لا يأتي حراكاً. ثم جلس على السرير، منقبض الوجه. فبدا لها في هذه اللحظات نقيضاً للحبيب الذي تتوق إليه.

وسرعان ما خبا سرورها، وراحت تتساءل هل تراجع لأنها اعترفت له بأنها عذراء.

ـ جيدون، ما الأمر؟

بدا صوته مليئاً بكل ما في العالم من اتهامات: «لماذا لم تخبريني قبل الآن؟».

ابتلعت ريقها بصعوبة وحاولت مرّةً أخرى: «لم أظن... لم أظن أن الأمر مهمّ».

فأجابها بنبرةٍ جافة:

ـ إنه بالطبع مهم.

ثم سكت فجأةً.

تلعثمت والدموع تكاد تترقرق في عينيها: «أنا آسفة... كان عليّ أن أعرف أنك تفضل النساء الخبيرات».

ولمّا سمع الأسف في صوتها، تمتم بنبرةٍ رقيقةٍ: «ليس لهذا علاقةٌ بتفضيلي النساء الخبيرات».

ـ إذاً، فبماذا يتعلق؟

فقال وهو يحاول أن يصرف النظر عن الموضوع: «الموضوع ليس

بهذه الأهمية، وأقترح أن تنسيه برمته».

- لا أستطيع، خاصة وأنا لا أفهم ما يشغلك. أحتاج لمعرفة أي ذنبٍ اقترفت.

- أنت لم تقترفي ذنباً، عدا امتناعك عن ذكر أنك عذراء.

كانت الحرارة تتوغل إلى خدّيها فيما تحتج: «وكأنها مسألةٌ علينا أن نخجل منها».

- لا، لم أقصد هذا. بل عنيت نقيضه في الواقع. فحين كنت يانعاً ورأسي يضجّ بالمثاليات فكّرت في أن أختار امرأةً أكون الرجل الأوّل وربّما الأوحد في حياتها.

وتابع بجفاف: «وعلى مرّ السنين، بدأت أشكّ في وجود هذه المرأة في عصرنا هذا. وكما ترين، كنت أكثر من. . .».

وتردد وكأنّه يحاول أن ينتقي كلمةً مناسبة ثم واصل: «أشعر بأنني دنيء لأنني كدت أسرق من فتاة عذريتها».

أجابت بدفاع: «لكنني لم أحاول أن أخفي الأمر. وكنت لأخبرك بالحقيقة قبل الآن، لو سألتني. كما ظننت أن المسألة جليةٌ خاصة بعدما أوضحت لك أنني لا أحبّذ العلاقات العابرة. . .».

- أعرف أنك قلت ذلك.

التفتت إلى وجهه وقرأت الحقيقة عليه بما لا يدع مجالاً للشك.

- لكنك لم تصدقني!

أقرّ: «لا، فمع أنك تبدين متواضعةً جداً، ومع أنني رأيتك تخجلين وتتوردين لأقل الملاحظات، إلا أنني ظننتك تلعبين دور البريئة. . .».

ثم أضاف بسخرية: «والحقيقة أنني أعطيتك علاماتٍ عالية على مقدراتك التمثيلية».

ثم مد يده ليطفىء المصباح، تاركاً للنيران المتوهجة والأطياف المتجمعة أن تحيط بهما. فتابعت وبالها مشوشٌ تماماً:

- لكنني لا أفهم لماذا تظنني أمثل. . .

- لمَ فعلاً؟ والآن لا شك في أنك تعبةٌ. . .

أضاف برقةٍ: «لمَ لا تتوقفين عن التفكير وتنالين قسطاً من الراحة؟ الآن سأتوجه إلى غرفتي».

ترى، لماذا اعتقد أنها تمثل عليه؟ فقد كان يملك من الأسباب ما يحول دون إساءته الظن بها. وراحت الأسئلة تجول في رأسها دونما جواب، وأخذت الألغاز تسكن بالها دونما حلول.

لقد كلمها عدة مراتٍ وكأنه مقتنعٌ أنها تعرف «هارتينغتون مانور» زاويةً زاوية، وكأنه متأكدٌ أن معرفتها بوالده تفوق ما تدّعيه بأشواط. أما أنا، فازدادت اقتناعاً أنه يوجّه إليها تهمةً ما، تهمةً لا تدري ما هي.

ولمّا سمع جيدون تنهيدتها، وكان متوجهاً في هذه الاثناء إلى الباب، عاد إليها وشدها إلى أحضانه ثم أسند رأسها إلى كتفه. ومع أنها شعرت براحةٍ ما بعدها راحة، إلا أن ذلك لم يخفف الألم في قلبها أو الإحساس بالنبذ. ومكثت لمدةٍ لا تأتي حراكاً وهي بين ذراعيه، تسمع خفقات قلبه: «سأذهب الآن، فلا تفكري في شيء واخلدي إلى الراحة».

جاءت كلماته رقيقة بحيث كانت البلسم لروحها الجريحة. .

بعد خروجه خفّت وطأة الآلام في داخلها. لكنها، حين غطت في السبات أخيراً كانت تتساءل عن التهمة الموجهة إليها.

ولم تعثر على الجواب إلا عندما فتحت عينيها. وكأن عقلها الباطني راح يجمع الانتقادات المتناثرة.

كانت أشعة الصباح اللؤلؤية تملأ الغرفة، وشمسٌ ضعيفة تناضل لتبرز من خلف ستارٍ من الغيوم الرمادية. انقشع الغبار المعتم الذي غطى النوافذ، فاستحالت نصف شفافة. في ذلك الوقت، كانت النار في الموقد في أبهى حلتها وكأن أحدهم زوّدها بوقودٍ جديد. وعندما أجالت بصرها في الغرفة وجدته جالساً على كرسي ينظر إليها بعينين خضراوين ملؤهما

بريقٌ وفحوى معيّن.

ـ صباح الخير.

لم يكن صوته ودوداً ولا معادياً، بل بدا خالياً من أي نبرة.

وجلست إلى الوسائد، وشعرها الحريريَ منسدلٌ على كتفيها.

تنهد: «ما كان يجدر بي أن ألومك لأن الذنب كله ذنبي. وما كان يحق لي أن أغويك، وقد أعماني عقلي عن إدراك أنك بريئةٌ كما الملاك. لكن الأسباب التي دفعتني إلى ذلك منطقية، وكنت أعتقد أنك...».

أكملت جملته: «واحدةٌ من صديقات أبيك».

بدا لوهلةٍ وكأنها أخذته على حين غرّةٍ، إذ تبدلت نظرة عينيه، وسألها: «وكيف توصلت إلى هذا؟».

ـ قلت إن عذريتي هي آخر ما توقعته، وكأنك تملك سبباً وراء ذلك... وقبل ذلك، ذكرت علاقات السير آين المتعددة مع نساءٍ لا يتجاوز عمرهن عمر بناته، وبما أنني أنتمي إلى تلك الخانة.

رفع جيدون حاجبه: «أهذا كل شيء؟ لا يبدو الأمر منطقياً».

ـ كما كلمتني أكثر من مرةٍ، وكأنني عرفته شخصياً، وسألتني غير مرةٍ هل رأيت هارتينغتون مانور من قبل، كمن يعتقد أنني زرت مسبقاً هذا المكان...

ـ ألم تزوريه؟

ـ لا طبعاً. فأول مرةٍ وقع نظري عليه، هي حين تبعتك إليه في ليلة الميلاد.

أوحت تعابير وجهه أنه لم يصدقها.

فهتفت: «ولكنك تعرف جيداً، أنني لم أكن واحدةً من صديقات أبيك قط».

أجاب بهدوء: «عزيزتي آنا.. لم أفكّر في ذلك قط».

وحين نظرت إليه فاغرةً فاها، أضاف: «أخشى أن استنتاجاتك، رغم

حنكتها، خاليةٌ من الحقيقة».

ـ إذاً ماذا كنت تقصد بقولك «أسباب منطقية»؟

ـ لو تركتني أكمل كلامي، لعرفت أنني أقصد أن الأسباب المنطقية تدفعني إلى الاستنتاج أنك عشت مع حبيبك.

فردّت بكآبة: «آه».

ـ لعلّك تذكرين أنه أراد منك الانتقال للعيش معه؟

ـ نعم...

ـ لماذا رفضتِ؟ ألم تحبيه؟

ـ ظننت أنني أحبه.

ولمّا أحسّ أنها لا تريد متابعة الحديث، أضاف: «أخبرتني أنه وعدك أنك المرأة الوحيدة في حياته، وأنك ستكونين كذلك دائماً، أليس كذلك؟».

ـ نعم.

ـ لكنك لم تثقي به؟ هل اعتقدت أنه سيحنث بوعده؟

فهزت رأسها نفياً: «بل وثقت به».

التهبت وجنتاها فجأةً، قبل أن تتابع: «لكن، في ذلك الوقت، لم أكن أفكّر في أيّ علاقة خارج إطار الزواج».

ـ إذاً، ماذا كان ردك حين عرض عليك الانتقال للعيش معه؟

ـ أخبرته أنني أريد فرصة للتفكير.

ـ وبماذا أجاب؟

ـ سلمني مفتاح شقته، وقال إنه ضاق ذرعاً باضاعة وقته سدىً. ثم منحني فرصةً حتى عصر اليوم التالي. فإمّا أن أنقل حاجياتي، وإمّا أن أشهد على نهاية علاقتنا...

فحثها جيدون بتصلب: «تابعي».

عضّت شفتها، وتابعت على الرغم منها: «في تلك الليلة، جفاني

النوم حتى طلع الصباح. . .».

وحين وصلت إلى هذه النقطة في كلامها اضطربت اضطراباً عظيماً، وراحت تفرك يديها بعنف، وإذا بها تكتشف أنها ما زالت ترتدي الخاتم الذي أهداها إياه جيدون في الليلة الماضية. حثت نفسها على بلوغ النهاية، فأخذت نفساً عميقاً، وتابعت:

ـ فكّرت في أن أفاجئه. كان الوقت يناهز وقت الفطور، ورحت أتخيّل كم ستسره رؤيتي في هذا الصباح الباكر. وهكذا، تسللّت بهدوء. كانت غرفة الجلوس والمطبخ فارغتين، فاستنتجت أنه ما زال في السرير. . .

ـ أكان هناك؟

ـ نعم، لكنه لم يكن وحيداً، بل بصحبة امرأةٍ أخرى، تدير ظهرها لي، فطالعني شعرها الأسود الطويل. . .

واستعادت آنا بعضاً من الألم والصدمة. . . مشاعر أحسّت بها حينها، وها هي تعاودها الآن.

ـ وماذا فعلت؟

ـ رحلت.

ـ إن كان ما تقولينه صحيحاً، فقد نجوتِ بأعجوبة.

سادَ صمتٌ، استغرقا فيه بالتفكير، قبل أن يسألها بصوته الهادىء: «ومتى حدث كل ذلك؟».

ـ قبل سنةٍ تقريباً، أي قبل أن أعود إلى رمينغتون وأفتتح متجراً.

فقَطب جيدون: «وهل عدتِ إليه مجدداً لاحقاً؟».

ـ لا.

ـ لكنك واظبت على رؤيته من وقت إلى آخر؟

ـ لا، بل لم يقع عليه نظري منذ ذلك اليوم.

ومع أنه صرف النظر عن متابعة الموضوع، إلا أنها أحسّت أنه ظلّ

يشك في تأكيدها.

وبعد برهة، سألها: «أبقيت تحبينه؟».

ـ ظننت لمدةٍ أنني أحبه. . . ولكن بعد رؤيته مع تلك المرأة، عرفت أنه لم يتغيّر قط ولن يتغير أبداً.

ـ وهل احتفظت بخاتم الخطوبة؟

فهزت رأسها، وقد حارت من إصراره على مسألة الخاتم: «كما أخبرتك، لم يعطني خاتم خطوبةٍ يوماً. فهو لا يؤمن بالزواج».

وفي النهاية، أردفت: «الخاتم الوحيد الذي تلقيته في حياتي، هو الذي وضعته في إصبعي مساء أمس».

ضاقت عينا جيدون تفكيراً، وجلس يحدّق في زاوية الغرفة، فيما عينا آنا لا تفارقان وجهه الوسيم وذقنه القوى وشفتيه المنحوتتين وأهدابه الطويلة التي تكاد ترتاح فوق وجنتين قاسيتين.

ثم أدار وجهه إليها ثانيةً. فأشاحت بوجهها سريعاً، وكأنّها ضبطت بالجرم المشهود.

سرعان ما غير الموضوع، وسألها بهدوء: «والآن بعد أن علمت لمَ لم أتوقع عذريتك، هل أنت سعيدةٌ بما آلت إليه الأمور؟».

ـ أكثر سعادة بكثير، فقد ظننت أنك تتهمني بذنبٍ فظيع.

تناول يدها وأمسك بها، فيما إبهامه يداعب كفّها.

ـ أنا آسف آنا. . . أنا إنسانٌ جديرٌ بالازدراء لأنني أسأت الظن بك.

ـ لا داعي للأسف.

ـ لا، بل كدت اغوي امرأةً أوضحت لي رأيها بالعلاقات العابرة، ومع أنك قد لا تصدقين، فأنا أشعر ببعض الندم.

ـ بل أصدقك.

ـ لكني ما زلت من لحم ودم، وأنت تملكين من الجمال ما يجذب الملاك نفسه. ولم أرغب فيّ حياتي بامرأةٍ كما رغبت فيك. ولهذا علي

الابتعاد عنك ما أمكن لئلا أضعف.

وعندما وقف سألها: «أتشعرين بالجوع؟».

أعلنت: «بل أموت جوعاً».

- ما رأيك بالبيض وبمشتقات الحليب؟

- لا أكاد أستطيع الانتظار لكنني سأستحم أولاً. ألا تود ذلك؟

- بل أنوي ذلك.

توجه إلى الحمام، من غير أن يعبأ بسخان المياه.

التفت إليها عند عتبة الباب وقال: «بعد الاستحمام سأعدّ الفطور المتأخرّ».

لمّا انتهيا من تناول الفطور، قام جيدون ليعدّ القهوة، واندفعت هي، بإحساس من يريد أن يؤدي حصته، إلى تنظيف الأطباق ووضعها في غسّالة الصحون.

وما إن فرغ الفنجانين، حتى وضع جيدون فنجانه الفارغ جانباً ولاحظ:

- يبدو الثلج من العمق والوحل ما يمنعنا من التنزه. أتملكين أفكاراً لقضاء عصر هذا اليوم؟

أجابت بغموض: «النقم بأي عملٍ تريده، فأنا لا أمانع حقاً».

بل يكفيها أن تجلس هنا معه.

فرد بابتسامةٍ عريضة تكشف عن أسنانٍ بيضاء لمّاعة.

- لقد وعدت أن أريك قسماً من مجموعة أبي كتباً ومخطوطاتٍ.

- نعم، أودّ ذلك.

- حسناً. مع أن الطقس قد أصبح أكثر دفئاً، إلا أنني لا أظن أن ذلك يؤثر على الحرارة في المكتب. لذا، من الأجدر بنا أن نرتدي معطفينا.

ثم اجتازا الرواق حتى وصلا إلى مقدمة المنزل حيث النوافذ الطويلة.

ما زال الثلج متراكماً، لكن الطرقات الأساسية لا شك صارت مفتوحةً

الآن. وإذا لم يتساقط الثلج هذه الليلة، فسيكون الغد يوماً طبيعياً. ولشدّ ما كرهت هذه الفكرة وصرفت النظر عنها.

كانت حجرة المكتب واسعة، مضاءةً وأنيقةً، يزيّنها موقدٌ عتيقة، ويعلوها سقفٌ مزخرف، وفي الوسط منضدة عليها كمبيوتر. وإلى الزاوية، مكتبٌ مزودٌ بأحدث الآلات التكنولوجية.

وأبدت آنا إعجابها. فأجابها جيدون: «أنوي أن استخدم هذه الحجرة كمكتبي العتيد، ولهذا نقلت هذه المعدات». ثم تناول مجموعةً من المفاتيح من مكتب والده القديم، وفتح الدرج الأول.

- ستجدين هنا أكثر المخطوطات إثارةً للاهتمام. لكن، بما أننا نفتقر للكهرباء، لن أستطيع أن أمدك بالمعلومات المفصّلة عن كل مخطوطٍ. لهذا، أقترح أن تلقي نظرةً عليها، فيما أجري اتصالاً هاتفياً.

جلس إلى مكتبه واستخرج الهاتف الخلوي من جيبه، وبعد لحظاتٍ، تناهى إليها صوته: «مرحباً! أين أنت؟ نعم أدرك هذا... سأحرر شيكاً بانتظارك... لا، لا داعي للشكر، أحسن استخدامه لا غير».

ثم سكت قليلاً، قبل أن ينطق بنبرةٍ أكثر دفئاً.

- نعم، ظننت فعلاً أن الدفء قد حسّن من الأحوال... أأنت حقاً...؟ حسناً، أراك عمّا قريب...

ومن طرف عينيها، راقبته وهو يضع الهاتف على المكتب، ثم يفتح أحد الأدراج، ويستخرج رزمةً كبيرة، راح يتفحص محتوياتها.

انكبت آنا هي الأخرى على المخطوطات بين يديها، إنما من دون اهتمام واضح، لأن عقلها لم يفكر إلا بجملة «أراك عمّا قريب».

ومع أنها عرفت مباشرةً أن هذا القسم من مجموعة السير آين ممتازٌ وحسن الترتيب، إلا أنها المرة الأولى التي تحتل فيها المخطوطات المكانة الثانية في قلبها.

كانت شبه متأكدة أن جيدون يتحدّث إلى الشخص الذي كلمه في

المرة السابقة، ويبدو أن هذا الشخص سيصل قريباً.

ولكن، ماذا لو كان الأمر يدور حول صاحبته؟ بل ماذا لو أتى بصحبة حبيبة؟ أتراه يريد أن يحذرها هي آنا لئلا تعد النفس بشيء؟.

ماذا لو أن هذا صحيحٌ؟ أتراه حقاً يهتم لمشاعرها وردة فعلها؟

ولو كان يهتم فعلاً، فماذا يفيدها لو حذّرها؟ قد تسنح لها الفرصة بستر ألمها، لكنه لن يزول أبداً. . .

قطع عليها صوت جيدون أفكارها المتشابكة: «أعثرت على ما أعجبك؟».

جاهدت لترسم الحماس على وجهها: «عثرت على الكثير».

ـ أتحبّين أن تقتني مخطوطاً معيناً؟

ـ بل بالتأكيد، لكنني لا أستطيع أن أتحمّل ثمنها، حتى لو كانت للبيع. . لقد قلت إنها تشكّل واحدةً من اهتماماتك، لذا أتوقّع أن ترغب في المحافظة على المجموعة؟

ـ نعم.

ـ أعرف أن ذلك يستغرق وقتاً ويكلف ثروةً، لكن أتنوي أن تنمّي هذه المجموعة؟

فهز كتفيه لامبالاةً: «ذلك يعتمد على عدة عوامل. في الحقيقة، لا يشكّل المال عائقاً. لكن، كهواية، أشعر أنها تستهلك وقتاً. إلا إن قررّت أن أحيل الهواية مهنةً. . . وبالمصادفة، ما زال هناك ما يحيرني. لقد ذكرت أنك عدت إلى رمينغتون لتفتحي متجراً. . . فهل لي أن أسأل كيف تمكنت من جمع رأس مال كافٍ، كي تشتري البضاعة التي تحتاجينها؟».

بدا كلامه ظاهرياً مجرّد سؤالٍ طبيعيٍ لا غير. لكن أدبه كان يخفي وراءه اتجاهاً مناقضاً أكثر خطورة.

وقبل أن تجيبه بهدوء، أخذت نفساً عميقاً.

ـ ألم أخبرك أنني أخذت قرضاً من المصرف؟ أما الباقي، فاستحصلت

عليه بعد مبيع «كوخ درام»، ذاك الذي أشرت إليه عند مجيئنا إلى هنا.

ـ أخبرتني أنك تحبين هذا الكوخ. وأنا متفاجىء لأنك قرّرت الافتراق عنه.

ـ لم أرغب في الافتراق عنه. ولكن، حين قُتل أهلي، لم أملك خياراً واسعاً. كنت ما أزال أرتاد الجامعة وكنت أفتقر إلى المال فلما أساء المستأجرون إلى المكان قبل رحيلهم عنه، نصحني الكثيرون بالبيع.

ـ رغم قرض المصرف، والمبلغ الذي حصلت عليه من البيع، لا شك في أنك ناضلت كثيراً لتشتري مخطوطاتٍ قيمةً كرسالة جون دون التي ذكرتها.

ـ كانت قيمةً فعلاً.

ـ فكيف تمكنت من شرائها إذاً؟

ـ لطالما حاولت أن أكتشف مسبقاً المخطوطات التي ستباع في السوق، كي أقوم بشرائها، بطرقٍ خاصة، كلما سنحت الفرصة. أتعلم إن وصلت تلك المخطوطات إلى المزاد العلني، فقد تبلغ سعراً جنونياً.

ـ وكيف تمكنت إذاً من الحصول على هذا المخطوط بالذات؟ أخبريني.

كان صوت جيدون هادئاً، لكن فيه فضولاً واضحاً.

ـ إنه لا يستحق الذكر، حقاً. . .

لكنه رفض الاستسلام، وتابع: «هل اشتريته في المزاد؟».

ـ لا، بل كان لديّ مصدر معلوماتٍ خاصة.

ـ حين ذكرت المسالة مساء أمس، قلت إن كاتبها على ما يبدو هو جون دون، مما يوحي أنك لم تكوني متأكدة من أصليتها.

ـ بل كنت متأكدةً تماماً، لكنني لم أستطع إثبات ذلك بسبب الظروف.

ـ ولمَ لا؟

ـ حسناً. . . لقد حصلت عليها بطريقةٍ غير مباشرة.

ـ أتعنين غير شرعية؟

فصعد الدم إلى وجنتيها، ثم قالت وقد ملأها الامتعاض: «لا، لا أعني غير شرعية! كانت عملية بيعٍ خاصة، وقد دفعت الثمن المطلوب».

ـ إذاً، لا أفهم أين المشكلة.

ـ لقد وعدني البائع أن يوفر لي المصدر، لكنه لم يفعل. وبما أنني لم أستطع إثبات أصلها، فقد اضطررت إلى الانفصال عنها في النهاية بخسارةٍ كبيرة.

ـ بالحديث عن جون دون. . . .

واختار جيدون ظرفاً، ثم استخرج منه ورقةً واحدةً وسلمها إليها.

ـ . . . أخبريني عن رأيك في هذه.

أمسكتها بعناية، وراحت تقرؤها بصمت. كانت الرسالة قد خطت بيد دون، وموجهةً إلى أحد أبناء أبرشيته قبل إقدامه على الزواج، وقد انسابت الكلمات بروعةٍ تحكي عن الحب الانساني والحب الإلهي.

لم تكد آنا تصدق عينيها، فأعادت قراءتها مرّتين، ثم درست الإمضاء بانتباهٍ، قبل أن ترفع بصرها عنها. فتساءل جيدون وهو يقرأ ملامحها: «أمن سوءٍ؟».

ـ أهذه رسالةٌ أصلية لدون؟

ـ ما رأيك؟

ـ أقول إنها أصليةٌ.

ـ وأنت محقةٌ.

تكلمت بصوتٍ يشوبه الذهول: «ولكنها مطابقةٌ للرسالة التي كانت بحوزتي».

حين اكتفى بالنظر إليها، أضافت: «ألا تفهم؟ إن كان هذا المخطوط أصلياً، فالرسالة التي اشتريتها نسخة طبعاً، ولاعجب أن البائع لم يزودني بالمصدر».

ـ ألا تظنين أن الرسالتين هما في الحقيقة رسالةٌ واحدة؟

فهزّت رأسها: «هذا لا يعقل طبعاً».

ـ ولماذا أنتِ بهذا التأكد؟

ـ إنها واحدةٌ من مجموعة السير آين. . .

فقاطعها جيدون: «بل كانت واحدةً من مجموعته، ولكنها، لسوء الحظ، سرقت».

هتفت: «سرقت؟ وكيف حدث هذا؟».

وتصلبَ وجهه كما الصوان وهو يقول: «كنت آمل أن تجيبي أنتِ عن هذا السؤال».

ـ ولماذا أجيب. . .؟

وتوقفت فجأة، ثم همست وقد تلاشت الألوان عن وجنتيها: «أنت لا تعتقد بالتأكيد أنني سرقتها!».

ـ ألم تفعلي؟

ـ لا!

وسرعان ما عاد اللون إليها بمزيجٍ من الغضب والانفعال.

ـ عدا عن أنني لا يمكن أن أقدمَ على تصرفٍ كهذا، أنّى لي الفرصة لأرتكب مثل هذا الفعل؟

ـ عزيزتي آنا. كلانا يعلم أن الفرص أمامك كانت عديدةً. لقد انتهى زمن الادّعاء، وحان الوقت لتعترفي بكل شيء.

ـ لست أملك أدنى فكرة عمّا تتكلم. وإذا كنت لا تفكّر في أنني واحدةٌ من صديقاتِ والدك. . .

ـ لا أفكّر في هذا.

ـ إذن، دعني أخبرك أن أفكارك عني كلها غلط بغلط. لم أسرق في حياتي شيئاً بل قل لي ما فائدة أن أسرق مخطوطاً كهذا بأية حال؟ فما دمت غير قادرة على إثبات مصدره فلن يساوي قيمته الحقيقية.

ـ فهمت أنه بإمكانك الإحاطة بهذه المشاكل، كالحصول على مصادر مزيفة مثلاً. ولقد سمعت أيضاً أن واحداً أو اثنين من الجامعين الطماعين العديمي الضمير لا يتوانيان عن الحصول على أي مخطوط يريدانه بشدة. فدفاعك، كما ترين، ليس متيناً جداً. وعلى أي حال، لقد أخبرتني بنفسك أنك لم ترغبي في الافتراق عنه. ولعلك أيضاً لم تطمحي إلى بيعه...

فقالت والارتجاف يتحكمّ بها: «أظن أنك مجنون. فأنت تظن أن هذا المخطوط والرسالة التي كانت بحوزتي هما نفسهما. وأنا أعرف أن هذا غير معقول».

ـ ولِمَ لا؟

ـ لأنني لم أحصل على رسالتي ولم أبعها إلا منذ مدةٍ قصيرة. أما أنت، فقل لي منذ متى حصلت على هذه؟

ـ اشتريتها منذ مدةٍ قصيرة، مع غيرها من المخطوطات القيّمة.

وفيما كان يتكلم، وضع عدة مخطوطاتٍ على المكتب، ونشرها أمامها كي تراها.

حدّقت فيها ورأسها يدور، ثم هتفت: «إذاً، أنت «جامع التحف»! أنت من اشترى مخطوطاتي!».

ـ هذا صحيح.

سألته بيأس: «ولكن لماذا؟».

ـ لأن بعضها يعود إلى مجموعة أبي وأردت استردادها.

ـ أنت مخطيء كلياً، فعلى حدّ علمي، لم أسرق رسالة من أبيك، ولم أشترِ منه مخطوطاً بما في ذلك هذه الرسالة.

ـ إذاً أخبريني عن مصدرها بالتحديد، وفيما تقومين بذلك...

ثم استخرج ثلاثة مخطوطاتٍ أخرى ونشرها أمامها: «... أود أن أعرف من أين حصلت على هذا... هذا... هذا...».

***

٩ ـ تكذبين!

فيما كانت آنا تحدق ذاهلةً في الوثائق أمامها، سيطرت فكرةٌ واحدة على عقلها. أما جيدون، فشرع يرمقها ببرودة وقد لاحظ الشحوب يجتاح وجهها: «نعم، لقد توقعت أن يكون شرحك مستحيلاً».

رفعت وجهها، وأجابت: «ليس مستحيلاً، بل غريباً. فكما ترى، أنا لم أشترِ هذه المخطوطات بالوسائل المألوفة...».

ضحك ببرودةٍ: «أنا متأكدٌ من ذلك».

ـ لكنني اشتريتها فعلاً.

ـ هذا ما تواظبين على قوله.

وأضاف بتنهيدةٍ وهو يشاهد الاحمرار في خدّيها: «ألم يحن الوقت لتقرّي بكذبك منذ البداية؟».

فما كان منها إلا أن أنكرت بمزيجٍ من الغضب والضعف: «لم أكن أكذب».

ـ إذاً لماذا تكبتين الحقيقة بهذا الشكل؟

ـ لأن الحقيقة قد تورط شخصاً معيناً.

ـ أتعنين حبيبك السابق؟

فغرت فاها: «وكيف علمت؟».

ـ أعلم كل الحقائق، لذا، من المستحسن أن تزوديني بروايتك

الخاصة.

عندئذ لم يبقَ أمامها إلا أن تأخذ نفساً مرتجفاً، وتبدأ: «أظن أنني أخبرتك أن دايفيد يعمل لحساب «درومبيز» وهي شركةٌ للبائعين بالمزاد العلني. أليس كذلك؟».

حين أجابها جيدون بالصمت، لم تملك إلا أن تتابع:

ـ ينصّ قسمٌ من عمله على زيارة الزبائن ثم تحديد ثمن ما يمكن أن يباع. وعليه، فقد اقترح أن يساعدني. فإن وقع على كتبٍ أو مخطوطاتٍ تهمني، سأل المالك عن استعداده للبيع بصورةٍ خاصة. في البدء، لم تعجبني الفكرة، واعتبرته عملاً موارباً، كما خشيت على وظيفته، إن اكتشفت شركة «درومبيز» الأمر. لكنه أكّد لي أن ما من سوءٍ سيطرأ، وأن المشاكل بعيدةٌ بعد السماء عن الأرض، ما دمت أحافظ على السرية، وأدفع المال مباشرةً.

«وفي أحد الأيام، وفيما كان يراجع إحدى المجموعات الواسعة التي لا تقدّر بثمن، كما أكّد، وقع على هذه الرسالة، وقد كتبها ووقّعها جون دون على ما يبدو. كانت السيدة صاحبة المجموعة قد ترملت حديثاً، وتنوي الانتقال إلى استراليا، لتعيش مع ابنتها وأحفادها. وقد تكفل دايفيد بنصحها ببيع رسالة دون، بما أنها المخطوط الوحيد ذو القيمةِ الحقيقية. وقد ناسبها الأمر تماماً، فبذلك ستوفر ثمن العمولة. وبعد أخذٍ وردٍ، أعطته الرسالة، ووعدته بأن تسلمه المصدر، ما إن تتفقد أوراق زوجها الراحل. أما أنا، فدفعت الثمن المطلوب. كان عالياً، لكنه يقلّ عما كنت لأدفعه لو تواجدت في مزادٍ حافلٍ بالمنافسين. غير أن المصدر ظلّ غائباً. وحين سألت دايفيد بعد مدة، أخبرني أنه اكتشف أن منزل السيدة المذكورة فارغٌ، وأنها سافرت من دون أن تترك عنواناً.

وبوجهٍ قاسٍ وخالٍ من أي تعبير، راح جيدون يستمع إليها من دون أن ينبس ببنت شفة. ثم سألها بنبرة لاذعة:

ـ وماذا عن المخطوطات الثلاثة الباقية؟ من أين حصلت عليها؟

ـ لقد عثر دايفيد عليها من أجلي، وقد كانت جزءاً من مجموعةٍ بيعت عند وفاة مالكها.

ثم أضافت بحزم: «وإذا ما أمعنت النظر، وجدت أن لكلٍ منها مصدراً. فبعد غلطتي الأولى، رفضت أن أسلم قرشاً من دون أن أحصل على المصدر. وكما ترى، فاسم السير آين غير مذكورٍ».

فردّ جيدون بسخرية، بعد أن جمع المخطوطات الأربع في ظرفٍ: «سبق أن ذكرت احتمال المصادر المزيفة».

وقبل أن تتمكّن من الاحتجاج، واصل كلامه: «وماذا عن الباقي؟».

ـ الباقي؟ أي باقي؟

ـ ما زال العديد من المخطوطات مفقوداً من المجموعة.

فتابعت احتجاجها بحدة: «أما زلت تظن أنها تخصّ أباك؟».

ـ أنا لا أظن، بل أعرف.

ـ لكنني أخبرتك عن مصدرها.

ـ مع أنني وجدت روايتك مبدعةً، ومسليةً أيضاً، إلا أنني أظن أنها في مطلق الأحوال... رواية.

ـ لكن عليك أن تصدقني. لقد حصلت عليها جميعها بواسطة دايفيد...

ـ آه، أصدق أنك حصلت عليها بواسطة دايفيد، ولكنني أؤمن أيضاً أن هذا كان من غير علمه.

ـ أنا لا أفهم... فكلامك غير منطقي... كيف لي أن أحصل عليها من غير علمه؟

ـ حين اصطحبك إلى هنا، وأراك المكان...

ـ لكنه لم يصطحبني إلى هنا قط! كيف يمكنك...؟

ـ عزيزتي آنا، أعرف أن كليكما أتى إلى هنا عدة مرات في العام

المنصرم.

ـ لكنني لم أرَ دايفيد مرةً في العام المنصرم. . .

وكأنها لم تتكلم، تابع جيدون: «كنت تسيطرين على المكان. وقد شرعت لك الفرص أبوابها كي تسلبي أي مخطوطٍ. وعليّ أن أسلم ببراعتك، فلم يجرفك الطمع مرةً. ولو سلبتِ أكثر من واحدٍ أو اثنين في كلّ مرةٍ، لاكتشفت السرقات بسرعةٍ. أخبريني، لمَ لم تزيفي مصدراً لرسالة جون دون؟».

كان وجهها ممتقعاً كما الورقة، فيما صوتها يتردد بارتجاف:

ـ لا أعرف من أين لك بهذه الأفكار الجنونية. وأظن أنك مجنون فعلاً. فأنا لاأملك أدنى فكرة عن مجيء دايفيد إلى هنا وقدماي لم تطأ أرض هارتينغتون مانور إلا حين اصطحبتني إلى المنزل مساء الجمعة. . .

فجأة، غطى وجه جيدون القاسي مزيجٌ من الغضب. وشعور آخر لم تستطع أن تسبر أغواره.

ـ الحق يقال، أنت لا تستسلمين بسهولة. بل أكاد أقدّر شجاعتك.

صرخت: «لا يهمني تقديرك، بل يهمني أن تصدق أنني لست بسارقة».

فتنهد: «أفهم ممانعتك الاعتراف بالحقيقة. لكنني أريد تصفية الجو، وإيضاح الأمور. لأيسر عليك الأمر أقول إنه من السهل أن يقع المرء أسير الإغراء، وقد مات المالك. . . ولا يبدو أن أحداً يعبأ بمصيرها. . .

فقاطعته بيأس: «اسمع، لطالما كان المانور يعجّ بالموظفين، وأخبرتني بنفسك أن السيدة موريسون وزوجها لازما المنزل بعد وفاة أبيك. . . ألا تتوقع منهم أن يعرفوا من يرتاد المكان؟».

ـ بل هم يعرفون. فماري هي أول من شك في ما يجري وحذرني. وأخبرتني كم من مرةٍ وفد دايفيد إلى هذا المكان، أولاً وحده، ثم برفقة امرأةٍ على مدار السنة الماضية. وقد وصفتها بأنها طويلةٌ، ذات شعر أسودٍ

طويل، وعينين قاتمتين تميلان إلى الزرقة. ويبدو أنه جال مع هذه المرأة في أرجاء البيت، وأراها الممر السري، إضافةً إلى المجموعة كتباً ومخطوطاتٍ. . .

إذاً، لهذا السبب توقع منها جيدون أن تعرف الممر السري. . .

ـ لماري موريسون عينان ثاقبتان. وصحيحٌ أن العديد من الكتب من الضخامة بحيث يصعب إخفاؤها، لكن من السهل أيضاً إخفاء بضعة مخطوطاتٍ في حقيبة يد، أليس كذلك؟

فأجابت بنبرةٍ جافة:

ـ وأنّى لي أن أعرف؟ لقد أخبرتك أنه لم تقع عيناي على دايفيد منذ أكثر من سنةٍ. وأياً كانت المرأة التي اصطحبها معه، فهي ليست أنا. وإن كانت السيدة موريسون هنا، لرددت كلامي نفسه لا محال، ما إن تعود من سكوتلاندا. . . .

ـ كنت آمل ألا نضطر إلى انتظار الحقيقة كل هذه المدة. . .

وفجأةً، قطع عليه كلامه صوت محركٍ. وبعد برهة، توقفت سيارةٌ في الخارج وسمعا صفق باب. ها إن زائرته المنتظرة قد وصلت أخيراً.

قال جيدون: «اعذريني للحظاتٍ».

ثم أغلق الباب وراءه، وتوغل في الرواق، تاركاً آنا في كرسيها، والمشاعر تتخبط فيها.

وفي غمرة تلاطم أفكارها، اتضحت في ذهنها فكرةٌ واحدة. لن تحصل على فرصة إثبات براءتها، إلا حين تعود السيدة موريسون من سكوتلاندا، أي بعد رأس السنة الجديدة. وحتى ذلك الوقت، سيبقى مؤمناً أنها ليست إلا سارقةً وكاذبة.

وما كان منها إلا أن عضت شفتها السفلى حتى ذاقت طعم الدم. وراحت تفكّر كيف يجرؤ على معانقتها بهذا الحب وعلى هذا النحو؟

لكنه بالطبع لم يتقرب منها بدافع حب. فبالنسبة له، لم يدخل الحب

مرةً في المعادلة. ومع أنه راعى أحاسيسها، إلا أن العناق لا يتعدى في نظره مجرد تسلية، فيها نكهةٌ من الثأر لاذعة.

كما أنه رجلٌ شغوفٌ، متقدٌ بالحرارة، رغب فيها عندما كانت أمامه. لكن الأمر لم يتعدّ بضع ألاعيب لتلطيف المواقف الحادة، وبعض الأكاذيب المتملقة لإضفاء طعمٍ حلوٍ على عملية الإغواء. . . مجرد هذا، لا أكثر ولا أقل.

وها هي تكتشف الآن لماذا بدا مهموماً حين عرف أنها عذراء، وشعر بقليلٍ من الخجل. لكن أين خجله من ذاك الذي شعرت به؟

فهي وقعت في حبه رأساً على عقب. . . وقد بلغ بها الغباء أنها أملت أن يبادلها الشعور نفسه. وهذا اسوأ ما في الأمر، بل أمرّ إذلالٍ ذاقته في حياتها.

ثم سمعت صرير الباب الخارجي الذي فُتح ثم أُغلق، وتبعه أصوات ناسٍ، من بينها صوت امرأةٍ.

ليتها تستطيع الرحيل في هذه الدقيقة نفسها ولا تعود إلى رؤيته مجدداً! نعم عليها الرحيل الآن.

كانت ترتدي معطفها، ولكنها تركت صندوقها وحاجياتها في الطابق العلوي. ومع أنها كانت مستعدةً للتخلي عنها، إلا أنها تحتاج إلى حقيبتها وحذائها وهما في المطبخ. ترى هل تستطيع أن تنسل وتأخذهما فيما جيدون مشغولٌ بزائرته؟ لكن آنا سرعان ما تذكرت أنه سيكون مع المرأة المجهولة إمّا في الرواق وإمّا في المطبخ، وفي الحالتين، من المستحيل أن ترحل من غير علمه.

غير أنه لا شك سيسعد لو تخلص منها الآن. وقبل أن تكتمل عناصر هذه الفكرة، أنبأتها حاستها أنه بالتأكيد لم ينتهِ منها بعد، سواءً تواجدت هذه الزائرة، أم لم تتواجد. ولو حاولت أن تغادر، فسيعثر على طريقةٍ هادئة لمنعها وإبقائها هنا. ولكن، ماذا لو افتعلت ضجة؟

سرعان ما صرفت الفكرة، وقد علمت بسخرية أن كبرياءها لن تسمح بأن تفتعل شجاراً أمام المرأة الأخرى، عشيقته ربما. وتهالكت على المقعد ومعنوياتها في أسفل دركها، ومزيج من الغضب والظلم يعتمل في داخلها. . أخذت تشبك يديها بشدةٍ، وهي تحاول أن تتكيف مع الواقع الأليم الذي سجنها هنا. فجأةً، وقعت عيناها على الهاتف الذي خلّفه جيدون على مكتبه. وهنا، استعادت عزمها بلمح البصر، فلو استدعت سيارة أجرةٍ، فسيضطر إلى تركها لا محالة.

اختطفت الهاتف، ويدها ترتجف من شدة الحماس. فبمن تتصل. . نعم كليو. . . وانبثقت فكرة صديقتها، كنور يضيء الظلام في آخر السرداب. وما كان أشدّ ارتياحها، حين أجابت كليو في الحال.

فتمتمت آنا بقدر ما تستطيع من هدوء: «هذه أنا».

سألتها كليو: «أين أنت بحق السماء؟ ولماذا تهمسين؟ لقد حاولت أن أهاتفك عدة مراتٍ و. . . ».

قاطعتها آنا في سرعة: «اسمعي، أنا في مشكلة، وأحتاج إلى مساعدتك».

كانت إجابة كليو سريعةً وخاليةً من أي ارتباك: «ماذا تريدين مني أن أفعل؟».

ـ أحتاج إن تستدعي سيارة أجرة. فقد تعطلت سيارتي، وأنا في هارتينغتون مانور، على طريق القصر القديم، أرجوك قولي للسائق أن يواظب على دق الباب، وألا يرحل إلا عند التحدث إليّ شخصياً. فمن المحتمل أن. . .

وسرعان ما قطعت المكالمة، وأعادت الهاتف إلى مكانه، ما إن سمعت وقع خطواتٍ تقترب من الباب.

وبعد ثانيةٍ، فتح الباب ليكشف عن جيدون، ويده على كتف شقراء طويلة ذات جمال باهر. بدت في أواخر العشرينات، وكانت تقول بمرحٍ:

«ليست الطرقات الأساسية بهذا السوء، في الوقت الحالي. لكن، كان من العسير عليّ أن أبلغ المنزل لو لم أملك رانج روفر».

وأضافت: «ومع أن السماء صافيةٌ، إلا أن الجوّ بات أكثر برودة مجدداً، وأظن أن الصقيع سيحل ليلاً».

ثم توقفت ومنحت آنا ابتسامةً عريضةً ودية، وهتفت: «مرحباً».

فتمكنت آنا من رد الابتسامة والتحية معاً. أمّا جيدون، فتراجع وهو ما يزال يراقبهما عن كثب ثم قال:

ـ أظن أنكما التقيتما من قبل، ولو بشكل عابر كما يقال.

فهزت الشقراء رأسها: «لا، لا أظن».

رمقها جيدون بنظرةٍ حادة: «ولكنك قلت إنك لن تجدي صعوبة في معرفتها».

ـ وما زلت عند قولي. ولكنها ليست ذات المرأة المناسبة. فمع أن الألوان هي نفسها تقريباً، إلاّ أن القسمات وشكل الوجه مختلفٌ تماماً. وأكاد أؤكد أن الاختلاف في العمر موجودٌ أيضاً. فالفتاة الأخرى في الثامنة عشرة.

عادت تقول وهي توجّه إلى آنا ابتسامة اعتذار: «أرجوك سامحينا إذا كنا نتكلم عنك كما لو أنك غير موجودة. لكن يبدو أن سوء تفاهم وقع. فكما ترين، يظن جيدون أنك صديقة دايفيد».

وبعد أن وجدت آنا صوتها أخيراً، أقرّت: «كنت في ما مضى لكنني لست المرأة التي أحضرها إلى هنا».

ـ لا. كنت قد بلغت المنزل حين أوشك دايفيد وصديقته على الرحيل. وقد توقف لبرهةٍ ليحييني ثم رحل بعيداً، ومع ذلك، فأنا أتذكر الوجوه جيداً.

فهتفت آنا بانفعال: «أنا سعيدةٌ بهذا».

فضحكت الشقراء: «كان جيدون يضيق عليك الخناق، أليس كذلك؟

أعرف أنه غاضبٌ من المسألة برمتها، فالرجال رائعون حتى يستحوذ هاجسٌ على أفكارهم. وحينها، لا يمكنك أن تعايشيهم. والمشكلة أنهم لا يقرّون أبداً بخطئهم».

ثم التفتت إلى جيدون وقالت بخفةٍ: «أعلم ما توصلت أخيراً إلى تقديره، وأعلم أن الحقيقة شكّلت صدمةً بالنسبة لك. ولكن، عوض أن تقف هنا وكأن السماء قد وقعت على رأسك ما رأيك لو تعرفنا؟».

وبدا أنه يحاول أن يستجمع أنفاسه: «طبعاً. ولكن أولاً، أنا أدين لآنا باعتذارٍ صادرٍ من القلب».

وحين استعاد السيطرة على الموقف، تناول يد آنا، وقال بصدقٍ جليّ: «أنا لا أقر بذنبي وحسب، ولكن، صدقيني أنا سعيد به أيضاً».

فسحبت يدها سريعاً، لأنها لا تستطيع أن تتحمل لمسته.

ضاقت عيناه الخضراوان وسألها: «آمل أن تستطيعي مسامحتي».

قد تسامحه على خطئه، لكن كيف تسامحه على التلاعب بمشاعر امرأة يعتبرها سارقةً وكاذبة، امرأةٍ لا يشعر نحوها إلا بالإزدراء، امرأةٍ لم يرد إلا استغلالها؟ لقد قضى على كبريائها وثقتها بنفسها، وجعلها تتخبط في الإذلال.

نصحتها المرأة الأخرى بابتسامةٍ عريضة: «هذا صحيح، لا تدعيه يفلت من ذنبه سريعاً. بل دعيه يتذوق مما شعرت به. دعيه يتلوى خجلاً».

فابتسمت آنا على الرغم منها وقالت: «بعد مثل هذا الاعتذار الجميل، لا يمكنني أن أكون بهذه القساوة».

فهزت الشقراء رأسها بيأس: «في ما مضى، كنت رقيقةً مثلك».

فصحح جيدون كلامها بعمق: «بل لم تتوقفي عن الرقة طيلة حياتك.

فما زلت أحفظ آثار الندبة حيث ضربتني بتلك الشاحنة. . .».

وأدركت آنا بانبهار أن هذه المرأة الشابة الجميلة هي أخت جيدون، ولاحظت الشبه بينهما.

التفت إلى آنا: «أظنك عرفت أنها أختي الصغرى، جاكلين. . . جاكي، هل لي أن أقدّم سافانا ساندر، وهي خبيرةٌ في الكتب النادرة والمخطوطات، وكانت تدير مكتبةً منذ مدة».

فتمتمت جاكلين: «آه، الآن فهمت كيف اندست الدودة في التفاحة. وبالحديث عن الديدان ألا تظن أن الوقت قد حان لتهتم بتلك الموجودة في المطبخ؟».

فوافق جيدون بابتسامةٍ: «بل حان تماماً».

ثم مد ليمسك بيد آنا وأضاف: «تعالي، أظنك تودّين أن تلقي التحية على شخصٍ ما».

حين حاولت أن تتجاهل اليد الممدودة، اشتدت أصابعه حولها بإحكام.

وعلّقت جاكلين وهم يعبرون الرواق: «آمل أن يكون الجو أدفأ في المطبخ. من العجب، أنك لم تتجمد من البرد. لمَ لم تشترك بمهرجان الميلاد السنوي عند أهل مايكل؟ فكوخ دانتون لا يبعد عن طرف البلدة الآخر إلا أميالاً قليلة. وهو مكانٌ واسع، أليس ذلك أفضل من البقاء هنا بمفردك؟».

ـ لكنني لم أكن بمفردي.

اختلس جيدون النظر إلى آنا، التي تصاعدت الحرارة إلى وجنتيها. وما كان منها إلا أن سحبت يدها من يده.

ـ عنيتكما أنتما الاثنين.

وعندما فتح جيدون باب المطبخ، سيطر هول المفاجأة على آنا، فتسمرت في مكانها، ووقفت مصعوقة وهي ترى الرجل الأشقر الطويل الواقف قرب المدفأة، وهو يدير ظهره إلى النار.

أعلن جيدون بنعومة: «هذا ابن أختي، ولكن بما أنكما تعرفان بعضكما، فلا داعي للمقدمات».

بقيت لبرهةٍ أو اثنتين، لا تفهم شيئاً، ثم جمعت واحداً زائد واحد فعرفت الحقيقة.

والواقع أن دايفيد كان مصدوماً صدمة كبيرة وكأنه لم يعد يفهم شيئاً هو الآخر. بدا فاغراً فاه، والذهول على تقاسيمه، يحدّق فيها وكأنه يرى شبحاً.

ثم أطبق فمه وزمجر قائلاً: «ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟».

أمره جيدون بفظاظة: «احفظ لسانك، فآنا ضيفتي».

تلعثم دايفيد: «لا أفهم كيف. . . أقصد، أنا. . أنا لم أكن أدرك أنكما التقيتما».

ـ لم نلتقِ حتى عشية الميلاد.

فبدا مرتبكاً وتابع: «ولكن كيف وجدتها. . لقد اختفت من دون أن تترك أثراً، فكيف عثرت عليها؟».

ـ حين عدت إلى المنزل، قرّرت أن أمام صديقتك السابقة كلاماً كثيراً تشرحه، فأخذت على عاتقي مهمة إيجادها.

انطلق دايفيد بتبجح: «إيّاك أن تصدق كلمةً، فهي كاذبةٌ، حقيرة ذات وجهين و. . . ».

بدأت آنا تلهث في حين علا صوت جيدون كجلدة سوط: «قلت لك احفظ لسانك».

وسرعان ما تحول التبجح إلى أنين: «لكنك تعرف ما هي عليه. . . تعرف أنها سلبتني كل ما أملك، ثم رحلت. وتعرف كيف اختفت مخطوطات جدّي. . ».

ـ أعرف روايتك للأحداث. لكن، يا للمفاجأة! فروايتك لا تنطبق مع رواية آنا. وفي الواقع، الاشتراك الوحيد في كلامكما هو أنها هجرتك. أما أنت، فأخبرتني أنك التقيت فتاةً تريد أن تتزوجها، وحين سألتك عن هويتها، أعلمتني عن آنا. ثم أقسمت لي أنك تنوي أن تصلح أسلوب

عيشك. وعلى هذا الأساس، أقرضتك مبلغاً كبيراً من المال، لتشتري لها خاتم خطوبة، بعد ذلك، أخبرتني ماري موريسون عن المخطوطات المفقودة إضافةً إلى زياراتك المتعددة مع حبيبتك للقصر. وحين طلبت منك اللقاء بآنا قلت لي إنها أقدمت على تركك، مصطحبةً الخاتم. والآن وبعد عدة شهور عرفت من آنا أنك سألتها أن تنتقل للعيش معك، ولكنها صدمت حين وجدت امرأةٍ أخرى تشاركك الفراش. وقد أنكرت الحصول على خاتم يوماً. وأكّدت أنها لم تطأ أرض الهارتينغتون مانور إلا عشية الميلاد أضِف إلى أنها أكدت لي أنكما افترقتما منذ ما يفوق السنة.

ألحّ الشاب بمزيجٍ من التحدي والوقاحة: «كما قلت لك، إنها كاذبةٌ مئةٌ بالمئة».

فاحتجّت آنا والغضب يتطاير من عينيها: «لست كذلك بالتأكيد».

ـ أحدكما كاذبٌ طبعاً... وأشك في أن تكون آنا.

ثم ربت على كتفها برفقٍ، فسحبت يده مباشرةً.

فردّ دايڤيد بسخريةٍ: «إذاً، لقد تمكنت منك أيضاً. لطالما اعتقدت أنها...».

لكنه سكت فجأةً حين رأى ردة فعل جيدون.

وسرعان ما تمتم بعد دقيقةٍ، ليرد على الصمت الذي يلفه: «أظن أنه لم يجدر بي أن أقول هذا، ولكن مثيلاتها من النساء يمثلن دور البريئة، ثم يمتلكن الرجل ويجعلنه، كما الخاتم في إصبعهن، وحين ينتفي الدليل الحسي...».

ـ ولكن الدليل الحسي موجودٌ. فقد وقع نظر جاكي على الفتاة التي أتت برفقتك، وهي مقتنعةٌ أنها ليست آنا.

ـ لم ترها إلا لثوانٍ معدودةٍ ولا يمكن أن تكون متأكدةً.

فأجابت جاكلين بهدوء: «بل أنا متأكدة تماماً، وحين تعود ماري موريسون...».

ـ آه، هي! إنها تكرهني ولطالما كرهتني، وستقسم على أي شيء لتحافظ على ودّ المالك الجديد.

ثم تلعثم وقد أدرك أنه تخطى حدوده: «أنا آسفٌ، ولكنني أنزعج حين لا يستمع أحدٌ إلى الحقيقة».

ـ لست مستعداً للاستماع إلى الحقيقة وحسب، بل سأقدم على ما في وسعي لأنتزعها منك.

فشحب الرجل الآخر وأضاف: «حسناً، ولكن، تجنباً لإزعاج السيدتين، من الأفضل أن نجري... حديثنا القصير... في حجرة المكتب».

هتفت جاكلين بمرح لم تخفه: «لا بأس... فأنا لا أمانع في استباحة الدماء في سبيل قضيةٍ جيدة».

أما آنا، فتملكها الانزعاج والقلق، وبادرت إلى القول: «آه، لكن...».

إلا أن نظرةً قويةً من المرأة الأخرى سرعان ما أسكتتها.

أعلن جيدون: «هلاّ انتهينا من المسألة إذن؟».

ارتد دايڤيد إلى خالته، وقد بدا أن الخوف قد تحكّم به: «لن تقفي جانباً وتدعيه يسحقني؟».

أشارت بهدوء: «أنت تساويه حجماً تماماً».

ـ ولكنك تدركين تماماً أنني لا أملك فرصة. ألا تهتمين بي أبداً؟

ـ وفي الواقع، بلى. لهذا أظن أن الوقت حان ليصلحك أحدهم قبل أن تنجرف في مشاكل خطيرة. فمنذ تبرأ منك الرجل العجوز وأنت تلجأ إلى جيدون. وبدل أن تواجه مشاكلك، تبدأ بالتسول والاستدانة بكل وقاحة. وكم من مرةٍ حاولت أن أحذرك، أما هو، فكان كريماً جداً وليناً جداً معك منذ البداية.

فرفع جيدون حاجباً قاتماً باتجاهها، لكن جاكي تجاهلته وتابعت:

«أعرف أنك لاقيت صعوباتٍ عديدة، وأنا أحبك فعلاً. . . ومحبتي تدفعني إلى رفض الوقوف جانباً وأنت تنحرف انحرافاً حقيقياً. . . ».

- لكني لست. . .

ومن دون أن تبالي باحتجاج دايفيد، استمرت تعنفه: «لقد كذبت ودبرت المكائد وغششت. والآن، أنت على استعدادٍ للسرقة. هل ستحاول أن تدّعي أن تلك المرأة الأخرى صاحبة الشعر الأسود ليست هي السارقة؟».

فانفجر قائلاً: «حسناً! لقد سرقت المخطوطات اللعينة فعلاً. ولو لم تثر البومة العجوز ضجةً على الموضوع، لما لاحظ أحدٌ الأمر».

ثم وجّه كلامه إلى جيدون: «لم يكن ذلك ليؤثر فيك. فقد جنيت ثروةً في الولايات المتحدة، هذا عدا عقارات جدّي التي ورثتها. وأنا من أسرة ستراتج أيضاً. وكان عليّ، على الأقل، أن أحظى بحصةٍ مناسبة. ولم يكن يحق للشيطان العجوز أن يتركني من دون قرشٍ».

عارضه جيدون ببرودة: «بل كان يملك كل الحق، فقد دفع مصاريف مدرستك، وأرسلك إلى جامعةٍ محترمة. وقد أعطاك الفرصة لتؤسس مستقبلك، لكن، بفضل أساليبك الهمجية، طردت».

تذمر دايفيد: «لقد أثار جلبةً من لا شيء يذكر».

وسرعان ما قست ملامح جيدون: «أنا لا أسمي الشرب والقمار والانتقال من امرأةٍ إلى أخرى لا شيء يذكر. لقد خرقت قواعد السلوك المحترم، ولا زلت تخرقها حتى اليوم».

صرخ دايفيد: «آه، لا تتظاهر بكل هذه التقوى! ألم تخرق القواعد مرةً؟».

- بلى، فحياتي مليئةٌ بالأخطاء. ومن لا يخطىء؟ لكني لست معتاداً على الكذب والنفاق، ولم أسرق ما لا يخصني. والأهم أني لم أورط إنساناً بريئاً في مخططاتي، لقد كذبت على آنا، وخدعتها حتى أصبحت

بحوزتها ممتلكاتٌ مسروقة. . . ومن ثم، وحتى تنقذ نفسك، حاولت أن تتهمها هي بالسرقة.

- حين سألتني فجأةً عن المخطوطات، تملكني الذعر. . . وكانت ديبي، صاحبتي، تشبه آنا، وكنت تعتقد أنني مازلت على علاقة مع آنا، لهذا. . .

نظرت إليه العينان الخضراوان بفتور، ثم قال: «وارتأيت إذاً أن الحل الأمثل هو لوم امرأةٍ لم ترها منذ سنةٍ متوقعاً ألا أكتشف الأمر. . . ».

تمتم دايفيد بغضب: «لم أكن أملك خياراً».

فتنهدت جاكلين والتفتت إلى آنا قائلة: «لا شك في أنك تكرهين عائلتنا».

فهزت آنا رأسها: «بل أنا مرتاحةٌ لأن الحقيقة انجلت، ولأن جيدون استعاد أربعةً من المخطوطات».

وهنا، وجه جيدون الحديث إلى ابن أخته: «بالحديث عن هذا، ماذا حدث للمخطوطات الباقية؟».

- تمكنت من أن أبيع مخطوطتين وقد مزّقت ديبي تلك التي لم أستطع بيعها. من المؤسف أنني التقيت يوماً بهذه المرأة الحقود القذرة. فلو لم أفعل، لانتقلت آنا للعيش معي، ولأخذت الأمور مجرىً آخر.

- أتعني أنك كنت ستستمر بإغداق المخطوطات المسروقة عليها، حتى يتوفر لك من المدخول ما يغطي حياة الترف التي تعيشها؟

حين لزم دايفيد الصمت وقد اجتاحه الخجل، تابع جيدون: «إذاً، أستنتج أن ديبي هي التي كانت معك حين وصلت آنا».

- نعم.

- ولمَ لم تقل لي إن آنا هجرتك؟

- ظننت أنك قد تسألني عن الخاتم.

- أين ولّى هذا المبلغ من المال طالما لم يكن هناك يوماً خاتم.

ـ حسناً، أنا. . .

ـ دعني أتكهن. . . لدفع ديون المقامرة، لا شك؟

ـ لقد صادفني حظ سيء، وكان جوي يهددني باستمرار.

ـ وأظن أن طلبك الأخير للمال مبنيٌّ أيضاً على «تهديد جوي باستمرار»؟

بدا على وجه دايڤيد وحده الإجابة الشافية.

ـ حسناً، إني أحمل لك أخباراً. لن أدفع ديون قمارك بعد الآن. يمكنك أن تعود إلى جوي وتخبره بذلك.

شحب وجهه كالمرضى، وتلعثم: «لا! لا. . . لا أستطيع. لقد وعدتني بشيك».

ـ كان هذا عندما اعتقدت أنك تطلب المال لتبدأ بعملٍ جديد.

ـ لا أفهم لماذا يهمك الهدف. فأنت تملك من المال ما لا تدري كيف تصرفه.

ـ عدا المبلغ المتواضع الذي تركه لي جدك، أي ذاك الذي تركته لك، لقد جنيت كل قرشٍ بعرق جبيني.

عاد إلى دايڤيد قليلٌ من غروره: «حسناً، إذا أعطيتني حصتك، فسأدفع ديوني لجوي».

ـ بالتأكيد لن تفعل. فلن أأتمنك حصتي من جدك إلا عندما تبلغ الثلاثين.

ـ ولكن إن لم أدفع لجوي، فقد لا أعيش حتى أبلغ الثلاثين. فأنت لا تعرف أعضاء عصابته، لقد نفد صبرهم و. . .

كشرت جاكلين: «لهذا إذاً تركت البلدة على عجلةٍ، ولحقت بنا إلى دايتون. كنت أتساءل لماذا فضلت أن تقضي الميلاد هذه السنة مع عائلتك».

أقرّ ابن أختها بصوت أجش: «كنت أحاول كسب المزيد من الوقت.

لكن، إن لم أعد في الغد، فسيأتون حتماً بحثاً عني. . .».

ثم توقّف وقد أصابه الارتجاف: «جيدون، أرجوك. . . عليك أن تساعدني!».

ـ حسناً، سأدفع ديون القمار للمرة الأخيرة، ولكن بشروط.

ـ شكراً، أنا. . .

ـ لا تشكرني إلا عندما تسمع شروطي، فقد لا توافق عليها. أولاً، عليك الاعتذار لآنا.

احمّر وجهه، ثم تمتم من دون أن ينظر إليها: «أنا آسف».

علق جيدون ببرودة: «هذا لا يعدّ اعتذاراً لائقاً».

ثم التفت إلى آنا: «ماذا تعتقدين؟ أتكتفين به أم لا؟».

نظرت إلى دايڤيد غير مصدقة، وكأنها لا تستطيع أن تتصور كيف أحبته يوماً. ثم قالت: «سأكتفي به».

ثم رمق ابن أخته بنظرةٍ فولاذية وواصل كلامه: «ثانياً، أريد منك أن تترك لندن في الحال، وتخلّف كازينو جوي وراءك».

ـ وكيف أفعل ذلك؟

ـ بما أنك لا تحب عملك الحالي، فسأقدم لك فرصة لتساعد في إدارة برامج الكومبيتر في أمريكا. فمع أنني أستطيع أن أقوم بمعظم العمل عبر شبكة الانترنت، إلا أنني سأستفيد من شخصٍ أثق به في الموقع هناك. سيرضيك الراتب، والعمل يشمل بيتاً تسكن فيه. وسيناسبك أسلوب العيش في كاليفورنيا، طالما تحكّمت بنزواتك. . .

فانفجر دايڤيد حماساً: «يبدو ذلك رائعاً».

فتجاهل جيدون مقاطعته وتابع:

ـ وثالثاً، بمساعدة راتبك والقليل من الوقت، ستعيد لآنا كل قرشٍ خسرته بتورطها في مخططاتك غير الشرعية. إذا وافقتَ على هذه الشروط، فسأحضر لك تذكرة سفرٍ، ثم تسافر إلى الولايات المتحدة.

www.elromancia.com

ـ أنا موافقٌ.

استخرج جيدون شيكاً مطوياً من جيبه وناوله إياه: «أيغطي هذا الدين بأكمله؟».

أقرّ دايڤيد وقد برز ارتياحه: «في هذه الظروف، إنه كرمٌ كبير منك».

ـ ما زال عليك أن تسمع تحذيراً إضافياً. فمع أنك فردٌ من العائلة، ومع أنني وجاكي ما زلنا نحبك، ألا أن عليك أن تتأكد أنها فرصتك الأخيرة. فاغتنمها وسيكون العالم ملكك، أو أضعها، وستبقى وحدك. أفهمت؟

ـ نعم، فهمت، ولن أخذلك.

هتفت خالته بمرح: «حسناً، بما أننا وصلنا إلى هذه النتيجة المرضية، فما رأيكم لو نرجع إلى دايتون لنلحق بزوجي وعائلته في منزل العائلة. لقد أخبرتهم أننا لن نتأخر إلا لساعةٍ تقريباً. وعلى أي حال، أود أن أصل إلى البيت، قبل أن يحل الصقيع».

ثم التفتت إلى جيدون وأكدت: «ما رأيك لو تأتي مع آنا؟ ستكون موضع ترحيب».

ـ شكراً، ولكن لا أظن ذلك.

ولمّا توجّه الجميع نحو الباب، خشيت آنا أن تبقى وحيدةً في المنزل مع جيدون، فسألت بسرعة: «أيصادف أن تمرّي بالبلدة؟ إن فعلتِ، فهلاّ أوصلتني؟».

بدت جاكلين متفاجئة، ولكنها أجابت: «طبعاً، إن كان هذا ما تريدينه».

أما جيدون، فقال بهدوء: «أفضّل لو بقيتِ، فعليّ أن أتكلم معك».

هزّت رأسها وهي تتجنب النظر إلى عينيه: «عليّ أن أرحل فعلاً. فما زال أمامي العديد من الأعمال لأنجزها».

ثم التفتت إلى جاكلين:

ـ هل بمكنك الانتظار لبضع دقائق ريثما أجمع حاجياتي؟

ـ بالطبع.

وبعد أن ارتدت آنا معطفها، وانتعلت حذاءها، التقطت حقيبتها، وسارعت إلى الأعلى.

وفيما هي تلقي بثيابها في صندوقها، ألفت نفسها تتساءل لِمَ تركها جيدون تذهب بهذه السهولة؟

ربما شعر أنه أساء إليها وسبب لها من الأذى ما فاق أذى دايڤيد، فأحس بالانزعاج وتركها ترحل؟

ولكن، مهما يكن السبب، فقد كانت سعيدة بالرحيل عن هذا المكان...

***

www.elromancia.com

١٠ ـ ساعة الرحيل

ولمّا انقضى عمر دقيقةٍ أو أكثر تقريباً، نزلت آنا السلالم. وإذا بالرواق الواسع المرصوف فارغ. ترى أعادوا جميعاً إلى المطبخ لسببٍ ما، أم تراهم ينتظرونها في السيارة؟

فجأة، تناهى إليها صرير باب حجرة الكتب، فانبرت إلى هناك لترى جيدون، وفي يده الهاتف الخلوي، وعلى وجهه نظرة حذرٍ خفيفة.

وما إن وقع نظر عليها، حتى دس الهاتف في جيبه، وتقدم نحوها يحمل حاجياتها وهو يقول: «اسمحي لي».

ـ من الأفضل أن أودعك الآن وأشكرك على الميلاد.

بدأ بسخريته: «إذاً، بما أننا نتبع الشكليات الرسمية، فمن الواجب أن أقول إنني تشرّفت بحضورك».

ثم أضاف بتهكم وهو يتأمل وجهها المشتعل بالحرارة.

ـ كم من المريح أن نقع على ضيف محترم مثلك، ولو كان شديد الممانعة دائماً. . . ومع ذلك يصادف أننا نقوم بمراسم الوداع في وقتٍ مبكرٍ.

ـ ماذا تقصد بالوقت المبكّر؟

ـ أخشى أنهما رحلا. وقد أوصتني جاكي بأن أخبرك.

ـ لا أصدق ذلك.

وسارعت إلى الباب الخارجي، وفتحته على مصراعيه. وإذا بالضباب قد بدأ يتجمّع في الخارج وبدت الأشجار أشبه بهياكل بشريةٍ سوداء.

ولم تبصر من السيارات إلا عربتها المدفونة تحت الثلوج. ولكن الآثار على الثلج أظهرت مكان الرانج روفر التي ولت بعيداً.

احتجّت آنا بيأس: «لكنها وعدت أن تنتظرني».

ـ لقد أقنعتها ألا تفعل، وشرحت لها أنني مازلت بحاجةٍ إلى محادثتك، وأرغب في أن تبقي.

ـ في ما يخصني، لم يعد بيننا مجالٌ للحديث، ولا أريد أن أبقى.

وحاولت أن تسترجع حاجياتها، لكنه أبدى ممانعةً، ثم مدّ يده من فوق كتفها، وأغلق الباب بيده الأخرى.

فصرخت والشرر يتطاير من عينيها: «لقد أخبرتك، ليست لديّ أي نيةٍ في البقاء».

ـ ولا أملك أي نية في أن أدعك ترحلين، قبل أن تستمعي إلى كلامي.

ـ لا أرغب في الاستماع إلى أي حرفٍ تقوله، وأنا راحلةٌ في الحال.

ـ إذاً، هل أنت مستعدةٌ للسير حتى البلدة؟

ـ إذا كان هذا ضرورياً.

بادر إلى القول: «لقد استعملت أنتِ هاتفي. فبمن اتّصلت؟».

ـ أتوقع أن تصل سيارة أجرة بين دقيقةٍ وأخرى، وسأخرج لملاقاتها.

ثم أضافت بتحدٍّ: «ولا تستطيع أن تمنعني».

ومضت عيناه الخضراوان: «لا تراهني على ذلك».

ـ لا يمكنك أن تحجزني هنا رغماً عني.

لكنها، رغم كلماتها، كانت متأكدة أن بمقدوره أن يقدم على ذلك فعلاً. فاستشاطت غضباً من الفكرة، وقالت: «إذا لم تدعني أرحل، فسأطلب من السائق أن يستدعي الشرطة ما إن يصل».

فرفع حاجبه نحوها بسخرية. وما كان منها إلا حذرته وهي تقبض على

حقيبتها: «أنا أعني ذلك. وأريد الرحيل».

- إذاً يبقى عليّ أن أغيّر رأيك وأقنعك بالبقاء، بانتظار سيارة الأجرة.

وقبل أن تدرك ماذا يعني، وضع جيدون أغراضها جانباً، ثم جذبها إليه، وأمسك وجهها بين يديه ثم ضمها إليه معانقاً.

انزلقت حقيبتها عن كتفها، وتركتها تستقر على الأرض بلا مبالاةٍ.

وعادت إليها ذكرى الليلة الأولى، حين عانقها عند الباب. ومع أنه كان عناقاً عادياً، إلا أنه ترك فيها مشاعر عميقة. أما الآن، فها هو يعانقها، كما يعانق رجل امرأةً في ذروة حبهما، بعمقٍ، بشغف.

كانت عيناه تناديانها، ويداه تشدّانها إليه حتى أصبح كل ما فيها يستجيب لعناقه، للمسة يديه، وراحت تشهد على ضعف عزيمتها وتردي المنطق فيها.

لكنها، لا.. لا تستطيع البقاء. فبعد كل ما جرى، لن تسمح لها كبرياؤها أو كرامتها أو ذكرى الذل الذي ألمّ بها، أن تتصرف وفق أهوائها.

وانتهى بها المطاف إلى استجماع ما بقي فيها من قوة، فانتشلت نفسها من أحضانه وهي ترتجف كورقةٍ، وارتدت لتلتقط حقيبتها.

وما لبث أن سألته بمرارة: «لمَ لا تتركني وشأني؟ ألا يكفي ما فعلته أنت وابن أختك؟».

أقر برصانة: «بل هو أكثر من كافٍ. والذنب ذنبي أكثر مما هو ذنبه. وهذا أحد الأسباب التي تدفعني إلى المطالبة ببقائك، عليّ أن أكتشف كيف أعوض عليك».

- لا أريد منك أي تعويضٍ. كل ما أطلبه هو أن تدعني أرحل. لا أريد أن تقع عيناي عليك مجدداً.

وما إن أنهت كلامها، حتى سمعت محرك سيارةٍ، وصوت إطارات على الثلج الهش. وبعد لحظةٍ، توقفت السيارة تماماً.

أخيراً، وصل السائق. فشكرت كليو في سرّها بحرارة. أما جيدون،

فألقى عليها نظرةً مقوّمة، ثم مضى إلى الباب وفتحه قبل أن ينتصب أمام المدخل، بقامته الطويلة وبصورةٍ غير مبالية بتاتاً. وما هي إلا لحظات حتى سمعت صفق باب السيارة، ثم تناهى إلى مسامعها صوت جيدون يتكلم بأدب: «أخشى أنك استدعيت من غير ضرورة، ولكنني سأدفع حسابك بكل سرورٍ».

فأحس الرجل بالإهانة وقال باختصار: «لقد لاحظت بالتأكيد أنني لست بسائق أجرة، أليس كذلك؟».

بدا الصوت آمراً، وكأنه معتادٌ على إلقاء الخطابات: «بول!».

واعتذر جيدون بسخريةٍ: «أرجو السماح، لكنه خطأ طبيعي لأننا كنا ننتظر سيارة أجرة. كيف أخدمك؟».

- جئت لاصطحاب آنا إلى المنزل.

- ما ألطفك! لكنني أخشى أنك أضعت وقتك.

- ماذا تقصد؟

وحفل الجوّ بعداءٍ ذكوري:

- أقصد أنها لا تريد العودة إلى المنزل.

- اسمع، أنا أصرّ على التحدث إلى آنا. فأين هي بحق الله؟

- لا بأس، أنا هنا.

وجاهدت آنا لتشق طريقها وتجتاز جيدون. أما هو فابتعد جانباً، لا ليدعها تمرّ، بل ليلف ذراعه حول خصرها، ويبقيها إلى جانبه.

واجهت الزائر القوي الجسم، بمزيج من الحيرة والشكر، ثم قالت وهي تكاد تلهث: «أشكرك على مجيئكَ بول. مع أنني لا أفهم لماذا أزعجتك كليو».

- يبدو أنها لم تستطع أن تستدعي سيارة أجرة. فاتصلت بي... آسف لأنني تأخرت في المجيء. لكن كليو أخبرتني أنك في مشكلة. ففضلت أن أكلفها رعاية صوفي ريثما أصطحبك إلى المنزل.

ثم أضاف بنشاط وقد وقعت عيناه على حاجيات آنا: «أظنك مستعدةً للرحيل؟ فالجو يزداد برودة، وقد يهدد سلامة الطرقات».

أجابت بعد أن استطلعت وجه جيدون المتجهم: «نعم مستعدة».

وبحركة من انتصر أخيراً، فتح لها بول باب المرسيدس. وحين تقدمت آنا إلى الخارج، أحست فجأةً بجيدون يمسك بذراعيها، ويأسرها بسحر جسمه المتين.

فتمتمت ببرودة: «دعني أرجوك».

أزاح شعرها الأسود الحريري عن عنقها، وطبع قبلةً ناعمة: «لا تغضبي مني يا عزيزتي».

ردت بحدة وهي تحاول أن تفلت منه: «لا تدعني بعزيزتك».

لكنه ظل يمسك بها من دون جهدٍ يذكر. فقالت: «أصرّ على أن تتركني. فأنا أريد أن أذهب مع بول».

وهنا تقدم بول آمراً: «دعها في الحال، وإلا...».

ضحك جيدون بنعومةٍ خطرة: «إلا؟».

وعلى الرغم من قامة بول الطويلة المنتصبة، والهيبة التي يفرضها في المحكمة، بدا متضايقاً من رفض الرجل الآخر وعيده.

- وإلا اتصلت بالشرطة.

فرد جيدون بمزيجٍ من اللامبالاة والمرح: «اتّصل بالشرطة إذا أردت، لكنني أشك في أن المسؤولين سيهتمون بشجارٍ بسيط بين حبيبين».

تمتم بول بصوتٍ مخنوق: «أتحاول أن تقول لي...؟».

- أنا وآنا حبيبان؟ أنا لا أحاول ذلك، بل أقولها لك الآن.

فرد بول بعناد: «لا أصدق كلمةً مما قلته. فأنا أعرف آنا منذ مدةٍ ليست بقصيرة، ولم أرك قط من قبل. كما لا أعرف اسمك».

- اسمي سترانج، جيدون سترانج. وأنت؟

- بول مانلي.

ثم عاد إلى هجومه: «ومنذ متى تعرف آنا؟».

فأقرّ جيدون: «منذ مدةٍ قصيرة. لكن الانجذاب كان سريعاً ومتبادلاً، أليس كذلك يا حبيبتي؟».

ثم شدّها إليه بحنان فأنكرت بحدة: «كلا، ليس صحيحاً».

تنهد جيدون: «أخشى أنها مازالت غاضبةً مني. لكن، انظر بعينيك يا رجل. أن كنت تعرف آنا جيداً، فهذا يعني أنك تعرف أن هذه سيارتها....».

اختلس بول النظر إلى الفوكسهول، فيما تابع جيدون: «وإن قسنا كمية الثلج التي تغطيها، يمكنك أن تستنتج أنها كانت هنا منذ ليلة الميلاد. وهي التي اصطحبتني إلى المنزل. وباستثناء زيارةٍ قصيرة من أختي وابن أختي، كنا، طيلة الوقت، وحدنا تماماً. وإن كنت لا تصدقني، فاسأل آنا».

- أهذا صحيحٌ؟

- في الواقع، نعم، لكن...

- قد يكون هذا صحيحاً، ولكن ذلك لا يعني أنها تريد البقاء معك.

- بل ستكتشف أنها تريد ذلك... على الأقل، حين يهدأ غضبها... وإلا، لماذا تظنها قبلت خاتمي؟

وببساطةٍ، كشف جيدون عن الخاتم في يدها، فبادرت إلى القول: «لكنه فقط....».

قاطعها جيدون بحزم: «صدقني، تبدو الحكاية بمثابة عاصفةٍ في فنجانٍ».

ثم وجّه حديثه إلى آنا بسرعةٍ: «استمعي إلى حديثي، وإن بقيت على إصرارك بشأن الرحيل بعد ذلك، فسأقلك إلى بيتك بنفسي».

فأجابته بنبرةٍ لاذعة: «وكيف ستقلني؟».

- سأستعير سيارة آرثر. فالمفاتيح في أحد أدراج المكتب. أرجوك،

آنا. . .

هزها سماع توسل رجلٍ مثله. وفيما هي مترددة، أطلق سراحها، وتراجع عنها. ومع أنها أصبحت حرةً، إلا أنها ظلت مسمرةً مكانها، مترددة.

فقال بول بغضب: «سيحل الظلام قريباً، وها قد بدأ الجو يبرد، لذا أود منك أن تقرري».

أعلن جيدون: «ستبقى».

لكن بول واظب على السؤال: «آنا؟».

فما كان منها إلا أن أومأت برأسها. وإذا به يستدير، مشدود الشفتين.

كانت تشعر بالعرفان بالجميل لاهتمامه، فهو رجلٌ لطيف، مما دفعها إلى القول بصدق: «أشكرك بول، فأنا أقدر حقاً كل المتاعب التي تكبدتها من أجلي. هلاّ شكرت كليو عني وأبلغتها حبي؟ وأخبرها أنني سأراها عمّا قريب».

ـ هل أنت متأكدةٌ من أنك تريدين البقاء؟

أجابت آنا وهي تتساءل عن ردة فعل كليو: «متأكدةٌ تماماً».

رفع بول يده في تحيةٍ لها، فيما لوحت له من بعيد قبل أن يقود السيارة ويرحل.

لكنها في الحقيقة، كانت تتخبط فيها كل المشاعر إلا الرغبة في البقاء. وبعد قليل أغلق جيدون الباب حمايةً من البرد، ورافقها إلى دفء المطبخ.

وسرعان ما اجتاحتها الشكوك. ألم يكن من الأفضل أن تختتم الفصل الأخير، وترحل وهي محتفظة بكبريائها؟ لكنها عجزت عن ذلك. وها هي الآن محجوزةٌ هنا، تحت رحمة ذكرياتٍ سيسترجعها جيدون رغماً عنها.

كانت النار تشتعل في الموقد، باعثة رائحةً لذيذةً من خشب الصنوبر. فخلعت معطفها، وتهالكت في مقعدٍ صارت تعدّه مقعدها، ثم مدت يديها

بالقرب من اللهب. أما هو، فجلس في المقعد المقابل لها، وعيناه لا تفارقانها ثم قال: «أنا سعيدٌ لأنك قررت البقاء، فأحتاج إلى التكلم معك».

وراحت آنا تفكّر بسأم أنها لا تحتاج إلاّ إلى طرد شبح الأيام الثلاثة الأخيرة من رأسها، وتمنت أن يزول أثرها وكأنها لم تكن يوماً، مصطحبةً معها كل ذكريات جيدون سترانج. . . لكن ذلك ليس صحيحاً. تمنت بسبب موجة الغضب والألم الأولى أن تدمر كل هذا. لكن ليس قبل أن يتدخل قلبها في الموضوع.

فقبله، لم تعرف مثل هذه السعادة وهذا الإشراق، وقبله، لم تعرف معنى الوقوع في الحب.

ـ هلاّ بدأنا بالجانب الأكثر شخصيةً؟

فأكدت شفتاها الناعمتان: «لا فائدة من إعادة الرماد إلى الحياة، فقد فات أوان أي تعليل».

ـ أخبرني شيئاً واحداً فقط. . . لماذا كنت مصممةً على الرحيل، عندما لاقت كل مشكلةٍ حلها؟

ـ أظنك تعني بالمشاكل المحلولة، أنك تصدق الآن أنني لم أسرق مخطوطات أبيك.

ـ إذاً ما زالت الحادثة تحزّ في قلبك؟

ـ ما يحزّ في قلبي هو أنك استغليتني.

فبدا مصعوقاً: «استغليتك؟».

ـ كنت تتقرب مني طلباً للثأر، ولم تكن تشعر إلا أنني سارقةٌ وكاذبةٌ تستحق الازدراء. . .

فقاطعها بسرعة: «هذا ليس صحيحاً».

ثم تنهد وتابع: «لعلي أخطأت. ما رأيك لو تركنا الجانب العاطفي في الوقت الحالي، وانتقلنا إلى الأمور العملية؟».

www.elromancia.com

حين أجابت بالصمت، تابع: «هل ترغبين في العودة إلى العمل بعد العطلة؟».

ـ إذا كنت تقصد العمل الذي عرضته عليّ، فالجواب هو لا. لا أريد أن أعمل لحسابك.

ـ أنا لا أقصد هذا.

ـ بالطبع لا، يا لغبائي! فالعرض لم يكن صادقاً. فكيف تسأل امرأةً لا تثق بها أن تعمل لحسابك. . .؟

فأجاب بصبرٍ: «لو أنك أصغيتِ إليّ لدقيقةٍ».

ـ حسناً.

ـ غداً، نفتح متجرك، وسأشرف على إعادة بضاعتك إلى رفوفها، بما في ذلك المخطوطات التي اشتريتها بحسن نيةٍ.

ـ كما قلت لك، لقد استخدمت كل المال الذي دفعتهُ لتسديد ديوني. ولم أعد أملك من النقود ما يخولني إعادة شراء البضاعة.

ـ لكنك لست مضطرة إلى إعادة شرائها.

فردت ببرود: «أنا لا أطلب إحسانك».

ـ لا دخل للإحسان بالموضوع. فكما تعرفين، دفعتُ أقل ما يمكن ثمناً للبضاعة.

بدأت تهزّ برأسها: «لا فائدة. . .».

ـ لا تكوني عنيدةً، فأنا مدينٌ لك. اسمعي آناً، أنا مستاءٌ جداً من الطريقة التي عاملتك بها. وأنوي أن أصلح أخطائي قدر استطاعتي.

ـ شكراً، ولكنني لست مهتمةً بقلقك ولا بنواياك الطيبة.

ـ لم أكن أعرض إلا حلاً محقاً.

ـ ولكنه لن ينفع.

ـ ولماذا لن ينفع؟

ـ لأن الإيجار ارتفع، ولن أتمكن من دفع هذا المبلغ الذي تطلبه

شركة ديون.

ـ وإن لم يطلبوا إيجاراً مرتفعاً؟

ـ لكن هذا واقعٌ. وما من فرصةٍ ليخفضوه.

ـ بل أنا متأكد تماماً من وجود فرصة.

دفعها يقينه هذا إلى النظر إليه بحدة. وفجأةً، اجتاحها شكٌ معين، فسألته: «هل تعرف مالك هذه الشركة؟».

ـ نعم.

ـ لا تقل لي. دعني أتكهن. . . إنه أنت.

ـ هذا صحيح.

ـ أيعقل أنك اشتريت البناية بأكملها لتتحكم بإيجاري لا غير؟

هز كتفيه لا مبالاةً: «أحبّ أن أملك كل الأوراق».

فسألته بصوتٍ مترددٍ: «ومنذ متى وأنت تحوم حولي بانتظار أن تبرز مخالبك؟».

ـ منذ عثر عليك المُخبر الذي وظفته في رمينغتون.

وسرعان ما سرت فيها قشعريرةٌ: «ماذا كنت تنوي أن تفعل بالضبط؟».

ـ كنت أريد أن أضمن فشل عملك، إضافةً إلى معاقبتك بطريقةٍ ما، بسبب معاملتك لدايڤيد. ولهذا قررت أن أتعرف إليك عن كثب، لأكتشف أي نوعٍ من النساء أنت.

تمتمت بمرارة: «ظننتك عرفت ذلك مسبقاً».

ـ مع أنني كنت غبياً لأنني صدّقت معظم ما قاله دايڤيد، إلا أنني أحببت تفقدَ الأمر بنفسي. ولهذا، جعلت موعد عودتي يصادف إغلاق متجرك. وكنت أنوي أن ألتقي بك، بطريقةٍ ما، وأعرض عليك عملاً. . .

ـ إذاً استلقاؤك على الأرض، واصطناعك الحادث! كان مزيفاً، أليس كذلك؟

www.elromancia.com

ـ نعم، كانت من بنات أفكار اللحظة الأخيرة، ولكنها نجحت. فكما ترين، أردت أن آخذك إلى الهارتينغتون مانور، وأبقيك هناك ليوم أو اثنين. وقد كان الطقس في صالحي. فلولا الثلج لواجهت صعوبةً كبيرَة. ولكن لحسن الحظ تآزرت كل الأسباب لمساعدتي.

ـ ومن بينها سيارتي التي توقفت عن الحركة.

ـ حسناً، كان الحظ معي.

فغرت فاها: «لقد عبثت بالمحرك!».

أقرّ من غير ندم: «فيما كنتِ في المكتبة».

ـ وأنت الذي قلت إنك لست خبيراً في آلالات!

ـ هذا صحيحٌ، باستثناء السيارات. ففي أيام دراستي الجامعية، عملت بدوام جزئي في مرآبٍ.

ـ كل هَذا التخطيط من أجل إبقائي هنا! لقد تكبدت العديد من المشقات من. . .

ـ كان الأمر يستحق ذلك.

ـ وكان إغوائي جزءاً من تخطيطك هذا؟

ـ لا، على الأقل، ليس في البداية.

ـ إذاً لماذا عانقتني عند الباب؟

تنهد: «كان هذا دافعاً عفوياً. أظن أنني رغبت في ذلك وحسب، كما أردت أن أعرف ردة فعلك. وفي الأساس، كل ما أردت فعله هو الضغط عليك، حتى تعترفي بذنبك».

ـ لهذا إذاً أخبرتني عن السير روجر وحاولت إخافتي.

أقر بهدوء: «ولست فخوراً بنفسي».

ثم عادت إلى موضوعٍ سابق قائلة: «من ثم غيرت رأيك؟ أعني بشأن إغوائي؟».

ـ لم أستطيع أن أقاوم الشعور، ورغبت في بعض آلالاعيب. أردت أن

أضايقك قليلاً ثم أكتشف ما يزعجك. وفجأةً، انقلب السحر على الساحر، ولم أستطع إلا أن أقع أسير رغبتي فيكِ. لكن لسببٍ ما بدوت مصممةً على الممانعة، وظننت ذلك عائد إلى أنني خال دايڤيد.

ـ إذاً أردت أن تضعف مقاومتي.

ـ عذري الوحيد هو أنني ظننتك. . . فلنقل. . . امرأةً من مجتمع معين. . . واعتقدت أن براءتك ليست إلا قناعاً. فقد أعطاني دايڤيد انطباعاً بأنك سهلة المنال. وظللت لفترةٍ أظن أنه محقٌ.

ـ وحين عانقتني عصر يوم الميلاد، واستجبت لك، نظرت إليّ بنوعٍ من الازدراء.

ـ لم يكن يحق لي أن. . .

فقاطعته: «ولمَ لا؟ كنت سهلةً. على الأقل معك».

فهز رأسه: «بل لم تكوني كذلك. لأنك رحتِ تقاومين مشاعرك، بطريقةٍ، أقر أنها فاجأتني. فكما ترين، أخبرني دايڤيد أنكما تعيشان معاً. ولهذا صعقت حين أخبرتني أنك عذراء. . .».

ـ ألم تستغرب أنه كذب عليك؟

ـ كنت أعتقد أنه يحفظ ماء وجهه، رافضاً أن يقرّ أن المرأة التي صرف عليها مبالغ طائلة ما زالت تمتنع عليه. فلطالما كان دايڤيد زير نساء متحمساً لإغوائهن.

ـ يبدو أنها صفةٌ عائلية.

اشتدت عضلات جيدون منذرةً بسوء، ثم تمتم بهدوء: «أعتقد أن الاتهام في محلّه في حالة أبي».

ـ ألا ينطبق عليك؟

ـ لا، لا ينطبق علي. لقد اقترفت الكثير من الأخطاء إلا هذا. لا أعني أنني لم أصادف نساءً في حياتي، لكنني لست زير نساء طبعاً. فلم تكن لي مغامرةٌ عابرةٌ يوماً، ولم أجن الغنائم في السرير. كما أنني لم أحظ بأكثر

www.liilas.com / روايات رومانسية

من شريكةٍ واحدة في الوقت نفسه. ولم أقم بإغواء امرأةٍ بالرغم منها.

فأحسّت بغصةٍ وقد شعرت بالخجل والندم في صوته. وقالت في سبيل التخفيف عنه:

ـ لكنك لم تغرني بالرغم مني.

فتنهد: «أشكرك على هذا. لماذا بعد أن رفضت كل من طلب حبك، كدت تستسلمين لي؟ ماذا ميزني؟».

أحببتك! لكنها لم تبح بالحقيقة. بل قالت وقد ازداد التورد في خديها: «وجدتك جذاباً جداً».

ـ لكنك كنت تجدين دايڤيد جذاباً. وفي الواقع، أخبرتني بنفسك أنه كان يعجبك، فلماذا تمنعت عليه؟

ـ كما قلت مساء أمس، أنا في الرابعة والعشرين من عمري. وهذا يعني أن عليّ أن أتغير؟

ـ ولماذا تريدين أن تتغيري. فليس هناك ما هو، أروع من امرأة نقية، بريئة.

شعرت أنه يقول كلماته تلك من باب اللطف فسارعت تقول: «لا أريد لطفك».

ـ أنا لا أقدم لكِ لطفي، بل أقدم لك الزواج.

بقيت لبرهةٍ ذاهلةً، قبل أن تضحك معبّرةً عن شكّها: «الزواج لماذا؟».

ـ لقد اقريت بأنك تجدينني جذاباً. وأنا سعيد بإعطائك نوع الالتزام الذي تطمحين إليه.

رفعت ذقنها بكبرياء:

ـ شكراً ولكنني أرفض.

اشتدت عضلات وجهه: «لا ترفضي قبل أن تفكّري في الأمر».

فقالت وهي تصرف النظر عن الموضوع: «لقد فكّرت فيه وأنا لا أريد

أن أتزوجك لأنك لم تطلب طلبك هذا إلا لأنك تشعر بالذنب بسبب سوء ظنك بي».

انتصب على قدميه، وأمسك بذراعيها حتى انتشلها من مقعدها، وراح يهزّها بخفةٍ: «أنا لا أتزوجك لأنني أسأت إليك أو لأريح ضميري. بل أطلب منك الزواج لأنني أرغب في أن أتزوجك...».

فهمست بصوتٍ أجش: «لا أصدقك».

تنهد: «إنها غلطتي. لقد كنت غبياً. ما كان يجدر بي أن أسألك بهذه الطريقة. وما كان عليّ أن أضغط عليك. كان علي أن أتقرب إليك رويداً، رويداً... لكن الأغبياء مشهورون بالتسرع، فيما الملائكة تخشى الإقدام، أما أنا، فخفت أن أخسرك».

فصرخت وقد آلمها كلامه كثيراً.

ـ لا أريد أن أصغي إلى أكاذيبك!

ولمّا عادت إلى الجلوس، جذبها إلى حضنه. فناضلت لتتحرر منه، لكنه رفض أن يطلقها.

ـ ليست أكاذيب، وعليك أن تسمعيني.

فجلست بثبات بعيداً عنه، وهي تتجنب النظر إلى وجهه:

ـ حتى في البداية، حين كنت أسيء الظن بك، وقعت أسيراً لسحرك، مع أنني حاولت ألا اعترف بذلك، لكنني أردتك لي. وقد ثرت غيرةً حين فكرت فيك ودايڤيد معاً.

ثم أمسك باليد التي يزينها الخاتم الذي أهداها إياه، وفتح قبضتها وأخذ يلثم أناملها واحداً واحداً.

ـ أقسم لك إنها الحقيقة. والآن أودّ أن أريح حملاً عن كتفيّ، فهل أنت مستعدةٌ للاستماع إلى الحقيقة.

ولما تنسم إيماءتها الخفيفة، تابع: «حين علمت أن خطتي في إبقائك هنا ستنجح، هاتفتُ جاكي وطلبت منها أن تحضر في اليوم التالي.

ولكنني اكتشفت في الحال أنك لم تكوني من النوع الذي توقعته قط. وبدل أن ألومك، رحت أخترع لك الأعذار، لأحاول تبرير ما ظننت أنك فعلته. وأقنعت نفسي أن الأشخاص المحترمين أنفسهم يضطرون أحياناً إلى المجازفة في سبيل تحقيق أحلامهم. وكنت مستعداً لمسامحتك، لكنني أردت أن تعترفي بالحقيقة أولاً، حتى نصفي الأجواء، قبل أن ننتقل إلى مشاعرنا. غير أنني غضبت جداً حين لم تقدمي على ذلك».

«وفي ذلك الوقت، كنت قد عرفت أنني أريد أن أتزوجك مهما حصل. كما عرفت أنني لا أريد أن أورط جاكي. لكن، حين هاتفتها لأمنعها من المجيء، كانت في طريقها إلينا. وقد فضل دايفيد أن يأتي برفقتها، ليستحصل على الشيك الذي وعدته به... فقمت بمحاولتي الأخيرة في سبيل دفعك إلى الاعتراف قبل مجيئهما. لكن، حين واظبت على تمثيل دور البريئة، عرفت أنني لا أملك خياراً إلا أن أنتظر جاكي لتواجهك. وما إن اكتشفت أنني أخطأت في حقك، حتى غمرني في البداية شعورٌ بالسعادة والارتياح، لأنك بالبراءة التي تبدين عليها. وسرعان ما اجتاحني الخجل والذنب بسبب الطريقة التي عاملتك بها. وأخيراً، سيطر الخوف رغم كل شيء، فخفت ألا تستطيعي مسامحتي، كما خفت أن تهجريني. وحاولتُ أن أقنع نفسي أنك لن ترحلي، لأنك تكنين لي بعض المشاعر. لكن، حين سألتِ جاكي أن تقلك، وكلكِ عزمٌ على الرحيل، تساءلت هل اقترفت خطأ آخر. كنت سأقف جانباً وأشاهدك ترحلين، لو لم تخبرني جاكي أي غبيّ سأكون لو تركتك. وقالت لي: «ما إن وصلت إلى هنا، حتى أخبرتني أنك تريد الزواج من آنا، مهما فعلت. والآن، آمل أنك لم تغيّر رأيك، لا سيما بعد أن ظهرت براءتها». فأجبتها أنني لم أغيّر رأيي طبعاً. فهتفت: «في هذه الحالة، حاول أن تخبرها عن شعورك».

وبإصبع واحدٍ، أدار وجه آنا إليه.

ـ أنت المرأة الوحيدة التي استحوذت على هذا الشعور.

فراح قلبها يرسل خفقاتٍ بطيئةً ثقيلةً. ثم سألته: «ماذا عن ايفا؟ ماذا حدث لها؟».

ـ في النهاية، عادت إلى زوجها. لا، لم يتحطم قلبي. ومع أنني كنت مغرماً بها، إلا أنني في الواقع، ارتحت. فهي تحب زوجها أكثر مما تحبني بكثير. هل تفهمين؟ ولا أظن أن العلاقات التي يحتل فيها أحد الشريكين المرتبة الثانية تنجح. فأنا أريد أن أحب، وأتلقى حباً عميقاً، شغوفاً. لهذا، تمنيت لو أن هذا السحر الذي أحسست به كان متبادلاً.

ـ أمن صفةٍ أفضل لهذا الشعور؟

ـ فهمت أن الفرنسيين يسمونه صعقة الحب. أما نحن فنسميه حباً من النظرة الأولى، مع أن التعبير بات مبتذلاً قليلاً. وعلى الرغم من أن بعض الناس لا يؤمنون به...

فتمتمت بهدوء: «أنا أؤمن به».

ـ آه، ولكن هل شعرت به من قبل؟

ـ مرةً واحدةً فقط. كنت أظن أنني شعرت به قبلاً، ولكنه كان افتتاناً. أما هذه المرة، فأنا متأكدة.

ـ متأكدة؟

ـ تماماً.

ـ أود أن أسمعك تعبرين عنها بكلماتٍ أكثر.

ـ بعمق؟

ـ بعمق!

ـ بشغف؟

ـ بشغف، منذ وقعت عيناي عليك.

وكوفئت بعناقٍ، سرى تأثيره إلى شغاف قلبها وجعلها تشرق سعادةً. ثم قال لها: «أبادلك الشعور نفسه».

فضاعت في أحضانه، وقد استغرقا في عناقٍ طويل. وما لبث أن قال:

ـ إذاً ستتزوجينني وتدعينني أستبدل الخاتم المزيف في إصبعك، بآخر حقيقي؟

فنظرت إليه من تحت أهدابٍ طويلةٍ سوداء وأجابت: «قد أفعل».

ـ وما السبيل إلى إقناعك؟

ـ أود أن أحصل على العمل الذي عرضته عليّ، كأمينة مكتبة ذات خبرة في السكرتارية...

ـ إنه لك.

ـ والآن بعد أن عرفت شعورك نحوي، أود أن...

ولمّا توقفت لبرهةٍ، وتورد خدّاها، رفع باتجاهها حاجباً متسائلاً.

فأكملت مسرعة: «... أن أكون لك إلى الأبد».

فاستقامت ملامح وجهه، وهتف: «وهذا جلّ ما أريد».

ـ ولكن عليك أن تصبر وتعلمني فنون الحب.

فطمأنها بابتسامةٍ ماكرة: «لا تقلقي يا حبيبتي، أنا متأكدٌ من أنني سأكون أستاذاً ملائماً».

***

www.riwaya.ga - منتديات روايتي / www.dorar-romancia.com